

تطور الفكر واللغة في المغرب الحديث

الاستاذ عبد العزيز بن عبد الله

واصل اول نواة حضارية عربية تلقاها المغرب بعد الفتح الاسلامي قد جاءت من طريق القيروان التي بدأت تنصهر فيها الحضارة الاموية بعد مرور ثلاثة ارباع قرن على الهجرة فاقامت المساجد والدواوين والمسالح والدور الصناعية على غرار ما عرفته دمشق واندالك من روائع امتزج فيها النصران الفارسي والروماني واذا اعتبرنا الصلة الوثيقة بين القيروان والمغرب قبل أن تزدهر بالاندلس الحضارة الاموية في اطارها الجديد امكننا القول بأن الشام كانت ينبوع المشترك للحضارتين ما لبث ان تعزز بعدد مباشر في عهد الادارة فاذا ما حاولنا التنظير بين عناصر الحضارة الاموية من نشأتها في الشام الى امتدادها بالاندلس لاحظنا وحدة مقومات العمران والبناء والزخرفة والنقش والثقافة والاجتماع والتراتب الادارية والقضائية في اشكالها ومصطلحاتها الا ان الاندلس لم تتصل بهذه المعطيات قبل وصول عبد الرحمن الداخل عام 137 حيث قضى خمس سنوات بالمغرب الشمالي يحاول مبثا اقامة مملكة اموية لان افواج اليمانيين والقيسيين ظلت في صراع حدا البربر انفسهم الى النزوح الى الريف وطنجة واصيلا بين عامي 134 و 136 هـ ولم تك الدولة الاموية الجديدة تستقر حتى وضع الادارة بفاس اسسا عمرانية كانت وفرة مياها وبساتينها وفنادقها وقبائرها ومسجديها مظهرا خافتا لعاصمة دمشق .

عرف البربر كسائر البدو منذ اعرق العصور حياة بدائية لم تكن تخلو من مظاهر احتفظت بها قبائل صحراوية واطلسية الى الآن كالملكية الجماعية والاشتراكية الفلاحية والسكنى في اكواخ الطوب بالداكر والاقتنار في الاكل على الكسكس والمبيد وشرب اللبن والعسل والماء القراح ولبس الجبة والبرنس ووضع اكاليل الريش على الرؤوس واستعمال الحراب والافواس والخناجر والدركات الجلدية في الحروب وكان المغربي يرسم على الجدران صورا تمثل حياته اليومية في براعة فنية رائعة كما يتحلى النساء بالاسورة والمعقود وتمتاز المرأة بنقش الاواني الخزفية ونسج الزرابي في تعاريج هندسية وبرز الاطار السياسي القبلي في شكل جمهورية صغيرة يمثلها مجلس منتخب وقد طعمت الحضارة القرطاجنية الشرقية هذه المعطيات الاولى بمصادات جديدة كالطربوش والقميص الفضفاض والتكحل والاختطاب بالحناء والاختتان (1) وربما حدث البربر الى التفكير في وضع احرف « تفناغ » على غرار الهجائية الفينيقية التي تكونت منها الالفبائية العربية اذا لم يكن البرابرة قد اقتبسوا هذه البادوة مباشرة من الهيروغليفية المصرية في الجناح الشرقي لافريقيا الشمالية ويظهر ان اليهود النازحين من الشام وخيبر لم ينقلوا الى المغرب شيئا جديدا باستثناء الديانة الموسوية ونصف من العبرية لم تترك أثرا يذكر في اللهجات المحلية .

(1) ماضي افريقيا الشمالية - كوبي ص 148 .

وسواء اكان هذا الاقتباس مباشرا او بواسطة فان الفاظا فارسية دخلت منذ هذا العصر الى المغرب ودخلت معها مسمياتها وقد اشار الثعالبي (1) الى نوعين منها :

1 - منسية وهربيتها محكية اوصلها الى مائة وواحد واربعين منها البياض والدلال والبقال والجمال والطراز (الدراز بالمغرب) والخياط والتند والبخور والغالية والعناء والضربة والتمري والريبة (الريبة بالمغرب) والخروج والدواة والرفع والفتيلة والمجرة (المجر بالمغرب) والزراق (انتشر خاصة بالجزائر) والطبل والقبة والهريسة والمصيدة .

2 - اسماء تفردت بها الفرس فعرّبها العرب او تركوها منها الابريق والطبق والتقصعة والسندس والياقوت والبلور والسيد والكمك والكنجيين والجنجيين والفلفل والكروياء والقرفة والزنجبيل والسوسن والياسمين والمسك والعنبر والكافور والقرنفل .

كما انتقلت الى المغرب في نفس الفترة من الشام مصطلحات رومية قليلة كالبنسان والقسطاس والبطاقة والاسطرلاب والقنطار والقرمود والترياق والقنطرة والقيطون (2) والذي يجعلنا نرجح وجود هذه اللفاظ في المصطلح الداوج بالمغرب منذ هذا العصر هو ان معظمها يمثل الظاهر الجديد للحضارة الاسلامية التي بقي الشعر والشعراء في منأى من وصفها لانهم حتى في دمشق ظلوا في ابراجهم العاجية يكون في اسلوبهم الجاهلي على الاطلاق ويتفنون بالماء الاسن في منقوشات المدينة الناشئة . واول مسجد على النسق المعماري الاسلامي في المغرب هو ذلك الذي بناه سميّد بن

صالح الحميري في تكور (3) في نهاية القرن الاول استمد في تصميمه من جامع الاسكندرية التي ظلت مهبط الرواد المغاربة وعلى راسهم الصوفي احمد البدوي دفين طنطا وكانت البساطة آنذاك هي طابع الفن المعماري الذي لم يعرف بعد المقرنصات ولا التعاريج العربية .

والواقع ان انعدام الاقتباس من الطبيعة والامعان في دراسة الرياضيات ونزعة الابداع حدثت لمسلمي الاندلس والقيروان ومصر لم المغرب الى التطويرات الهندسية الساذجة التي يظهر انها وسعت الزخرفة في اوائل العصر الادريسي وكان استمرار الصراع في الاندلس بين العناصر السلالية المختلفة من عرب وبربر وقوط عائقا دون تفتح الفن حيث لم تكد تمر ست سنوات (4) على تأسيس فاس حتى انحدرت الى المغرب ثلاثمائة اسيرة قيروانية تلتها بعد اربع سنوات ثمانمائة عالة جاءت من ارباض قرطبة معظمها من الفلاحين والمزارعين الذين استقروا بعدوة الاندلس ووصل بعضهم الى فازاز بالاطلس انتجاعا للحقول والمراعي الخصبة واشجار التوت لتربية دود القز وصناعة الحرير بينما كان مهاجرو حاضرة القيروان من الفعلة الذين اقاموا في مدوة القرويين الخلايا الاولى للحرف والصنائع البدوية مدرجين بذلك في المصطلح الصناعي والتجاري مفردات دخلت منذ ذلك في التقاليد الحرفية لا نستطيع تحديدها بالضبط واذا اعتبرنا ان الوضع الحالي بفاس لا يختلف كثيرا مما كان عليه من حيث الهيكل العام فاننا نلاحظ ان مدوة القرويين تضم معظم مقومات الاقتصاد والثقافة والاجتماع ففيها القياسيات والحرف والمدارس والزوايا والفنادق ويبلغ مدد احيائها اثنى

(1) فقه اللغة طبعة 1378 - 1959 - القاهرة ص 450 - 455

(2) دار القيطون بفاس اسسها المولى ادريس

(3) مما يبرز تأثير الاندلس احداث الموالى الصقالبة لقرية تحمل اسمهم فوق مدينة تكور المسالك والممالك للبكري طبعة الجزائر 1911 ص 97 .

(4) تبلغ الاسر الاندلسية التي هاجرت الى فاس عام 202 هـ \ 818 م اربعة آلاف حسب عبد المالك الوراق وثمانية آلاف (روض القرطاس ص 25) ودوزي : تاريخ مسلمي الاندلس 1932 ج 1 ص 301 او ثمانمائة (هنري طيراس - تاريخ المغرب ج 1 ص 118) بينما بلغ مدد الاسر الافريقية التي جاءت من القيروان عام 198 هـ ثلاثمائة ويعتبر ان مدد الربيعيين تراوح بين اربعمائة وثمانمائة اعتبارا للفظ المحتمل الناتج من اضافة صفر للعدد ونظرا للتوازن الديموغرافي بين الصديقيين وقد تحدث المقرئ في النسخ (ج 1 ص 318) عن الوقعة التي ادت الى طرد الاندلسيين فذكر ان الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل انهمك في لدائه فخلعه العلماء بقرطبة فاجلاهم من الاندلس ولحقوا بفاس والاسكندرية ومنها الى جزيرة اقريطش .

مشر مقابل نصفها في عدوة الاندلس و 17 حماما
موض سنة و 96 كتابا قرأها بدل 24 وست مدارس
بدل النتين (5) .

هذا وان جامع القرويين الذي اسس عام
245 هـ مع شبيهه جامع الاندلس على يد ام البنين
واختها مريم الفهرية القيروانييتين لم يكن يثير الانتباه
بفن جديد نظرا لعدم اختصاص بنائيه القيروانييين
هذا نصيبه الغريب الذي تتوازي بلاطاته مع القبلة
على فرار مسجد الشرفاء الادريسي وجامع ابن
طولون بالقاهرة وجامعي بعلبك ودمشق وقد اضاف
اليه الناصر الاموي عام 345 اي بعد مرور قرن كامل
على بنائه انني مشر بلاطا جديدا وحول المنارة الى
مكانها الحالي مشبها بابها «بصفائح النحاس الاصفر»
مع «قبة صغيرة» محلاة بتفافيح موهبة بالذهب» (6)
وبذلك انبثقت النواة الاولى للفن الاندلسي المغربي
البارز في مسجد قرطبة ومدينتي الزهراء والزاهرة
حيث امتزج العنصر السوري بالفارسي والبيزنطي
ولعل عهد الناصر الذي ازدهرت فيه الفلاحة
والصناعة والتجارة والفنون والعلوم (7) بالاندلس
كان عهد تحول وانتقال في تاريخ الحضارة المغربية
التي بدأت تتخذ بالعاصمة الادريسية سمات جديدة
في شتى المجالات ، تقل مع ذلك روعة وفخامة من

اصولها بقرطبة اذا اعتبرنا المضافات الاموية بجامع
القرويين وقد انتشرت بدائع هذا الفن في حواضر
ادريسية كالبصرة واصيلا أصبحت تنافس مدينة
فاس .

ومن الصعب ان نتعرف على العناصر الحضارية
والمصطلحات التي تسربت الى فاس في القرن
الثالث الهجري وان كنا نعرف مما كتبه مؤرخون
عرب ايشال الحميدي صاحب جلدوة المتبسي
وابن غالب صاحب فرحة الانفس والروض المطار
للحميري ونفع الطيب للمقري الكثير من ذلك بالنسبة
للاندلس حيث اتمت مظاهر المدنية في الادارة
والقضاء والشرطة والاقتصاد والصناعة والفلاحة
والاجتماع وال عمران واول ما يبده الباحث حتى
بالنسبة للامويين هو امتزاج العناصر الحضارية
بسبب تداخل الاختصاصات وعدم فصل السلط
حيث تندرج كثير من مقومات الدولة ضمن البلاط
كالجامع والصدقات والامصار والرسوم المرسومة على
المرائب الواردة والصادرة والرسوم الموظفة على بيع
الاسواق والمكوس والشرف (8) او الامين ودار
السكة وخزانة الطب والحكمة واذا ما حاولنا ان
نقارن بين مصطلحات هذا العصر والتمايز المغربية
دون تحديد لاطارها الزمني فاننا نلاحظ ان اغلبها

(5) ذكر ليفي بروفنسال ان الاندلسيين نقلوا معهم الى المغرب فن البستنة وكذلك تجربتهم للحياة
الحضرية كالبنا والبناء التقليدية (فاس قبل الحماية (Fès avant le Protectorat) وقد لاحظ
لوطونو من (205) انه اذا كان العرب قد نقلوا الى فاس مظاهر نبلهم فان الاندلسيين قد نقلوا
رفقهم والقيروانييين مهارتهم واليهود حيلهم والبربر صمودهم « وقد اعطانا الاستاذ حسن حسني
ميد الوهاب في كتابه « بساط العقيق » صورة من حضارة القيروان حيث تحدث عن سباطها
(يوجد شبهه بفاس وهو سباط المدول الا انه اصفر منه) وحماماتها العمومية (49حماما) ومصانع
الزربية (ذات الطابع القيرواني الخاص رغم اصلها الفارسي) والزجاج والبلور والورق ودار
الطراز وكان قاضي القيروان شيخا للاسلام في تونس او قاضيا للجماعة كما في فاس وقد لاحظ
الاستاذ التونسي في رسالة بالفرنسية ان الطبقة المتمتدة الفنية من الاندلسيين قد نزلت مدينة
تونس واختلطت باهلها وقلدهم الحفصيون الذين هم فرع من الموحدين . وقد ذكر المقري من
ابن غالب (نفع الطيب ج 2 ص 764) ان اهل الاندلس تفرقوا في المغرب الاقصى مع الريقية فعال
اهل البادية الى ما اعتادوه فاستنبطوا المياه وخرسوا الاشجار واحدثوا الارحى الطاحنة بالماء
وعلموا اهل البادية اشياء جديدة .

ومعلوم ان الاندلسيين كانوا يحتكرون ببلادهم -حسب سرفانطيس مؤلف دون كيشوط - تجارة
الاغذية ويضمون يدهم على الحاميل عند نضجها وهم لا يشترن العقارات حفاظا على حرية
دواج اموالهم .

(6) زهرة الآس ص 37

(7) ابن حوقل - طبعة Goerge ج 2 ص 77

(8) هذه الكلمة معناها امين المال وقد استعملها الموحدون (زهرة الآس ص 82) .

اضيفت لجامع القرويين الذي اتخذ حينذاك شكله الحالي بمبشره المصنوع من « الصندل والابنوس والعناب والماع » (13) وقبته التي كشفتها الحفريات عام 1952 كنموذج للفن في اروع مجاليه . وهكذا فالفلة الاندلسيون الذين انتقلوا الى المغرب في العصر المرابطي كانوا اذن اكثر اختصاصا من سلفهم وان كان عملهم لم يتجاوز نطاق هندسة المساجد وبعض المآثر العسكرية لان بداوة المشيخين وتشفهم حالا دون تقبل عناصر حضارية طريفة زخرت بها آنذاك قرطبة واشبيلية كموسيقى زرباب الذي احدث في الاندلس ثورة جذرية في العادات فكان بحق « مشرع اسبانيا العربية » ، كما يقول دوزي - وظلت المرأة المغربية بدوية الطبع رغم سفورها (14) لم تفتح للثقافة عدا القليلات امثال زينب النفراوية زوجة يوسف بن تاشفين والبطلة الموحدة فانو وام هانيء بنت القاضي عبد الحق بن عطية وحفصة الركونية استاذة نساء دار المنصور (15) بل استاذة عصرها (16) وام عمر وبنت ابي مروان بن زهر طيبة النساء في البلاط الموحدي وورقاء الفاسية الادبية الشاعرة (17) وزينب القرقولية استاذة القراءات السبع بمراكش والفحات وزينب بنت يوسف ابن عبد المومن التي ربيت بالاندلس فكانت صاحبة الرأي في البلاط والشفوف في المجتمع وازاء هذه الندرة من المثقفات في المغرب كانت نساء غرناطة يشهدون الحفلات العامة سافرات ويسفن بوجودهن عليها روعة وسحرا ويتمنن بقسط وافر من الحرية الاجتماعية ، كما كان بالربض الشرقي لقرطبة وحده مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي الذي اتخذ في هذا العصر اشكالا خاصة بالمغرب غير ان الموحدين قفزوا بالفن الى مستويات راقية بالرغم مما ابدوه في البداية من روح التزم

مقاربة عدا كلمات لم يعرفها المغرب مثل صاحب البنيان وصاحب البيازرة والاسجبال الخراجية وصاحب القطوع (اي الجباببات المرسومة على الاقطاعات) وصاحب الرد (رئيس قسم الشكايات بالقصر الملكي) والكور المجندة والجند المتدون (اي المسجل في الديوان) ونحس السراشق (اي مكان تقام فيه حفلة البروز لتوديع البعث العسكرية وعقد الالوية) والمهرجان (عيد موسمي منه المنصورة التي تعرف بالمغرب) على ان معظم اسماء الحرف موحدة وكذلك اسماء الازهار والاشباب والمصنوعات اليدوية وغيرها (9) واستمر هذا الاقتباس طوال قرن ونصف قرن بدافع من بني زيري وخلفاء المنصور ابن ابي عامر الى ان اصبحت الاندلس جزءا من العدو الجنوبية تحت حكم المرابطين الذين استمدى زعيمهم يوسف بن تاشفين رجال الحرف القرطبيين لاقامة المساجد والسقايات والحمامات والفنادق بفاس (10) ودار الامة بمراكش بينما استعان نجله علي بن يوسف بمهندسي الاندلس لمد قنطرة تنسيفت (11) وقنوات الماء وبناء دار الحجر بمراكش (12) وكان لوحدة افريقية والمغرب الاقصى حينئذ اثرها في ضم الآثار القيروانية الى المدد الاندلسي غير ان من الصعب تمييز الاثرين بوضوح لان جامع القرويين نفسه دخلت فيه مواد اندلسية كالمرمر والاجر والجبس عند تجديده على يد محمد ابن حمدون الاندلسي عام 252 هـ ولم ينس المرابطون الصحراويون اقامة القصبات والحصون في عمرانهم العسكري الذي تعزز بتسوير الحواضر ايام علي بن يوسف بايعاز من ابن رشد الاندلسي واذا اردنا دليلا على مدى انسجام الصحراويين المغاربة مع روح العصر واستغاثتهم للفن واساليبه ومصطلحاته فان ذلك يتجلى بوضوح في الروائع الجديدة التي

(9) راجع القائمة الكاملة بهذه المصطلحات في الملحق رقم 3 بكتابنا الصادر في الموضوع والذي نشره معهد البحوث والدراسات العربية بعنوان : (تطور الفكر والحضارة في المغرب الحديث) (1969) .

(10) زهرة الاس ص 87 وجذوة الاقتباس ص 27 .

(11) الادريسي - مقتطفات من النزعة - طبع الجزائر 1957 ص 69

(12) الاستبصار - ترجمة Fagnan ص 179

(13) زهرة الاس ص 42

(14) حتى الاميرات لم يكن يتحجبن مما حدا المهدي بن تومرت الى نقد سياسة البلاط الدينية للنيل منه سياسيا .

(15) الدر المنثور في طبقات ربات الخلد ص 165

(16) الاطاعة لابن الخطيب

(17) جذوة الاقتباس ص 335

(18) فاضافوا روائع جديدة الى المائر الاموية تجلت في المنارة الخالدة باشبيلية وجامع حسان بالرباط والكتيبة بمراكش والقصور الفخمة والحدائق الفناء (على غرار مسرة المراكطين المعروفة الآن بالمنارة ونظرب مثلا لهذه الروعة بمنبر الكتبية الذي يرجع الى عبد المومن (19) والذي قارنه ابن مرزوق بمنبر جامع قرطبة واعتبره طيراس وباسي (Terrasse et Bassot) اجمل ما ابدعه الغرب الاسلامي بل العالم الاسلامي « ولعل الوحدة السياسية التي حققتها الدولة البربرية في المغرب الكبير قد تجلت خاصة في تجديد الاتصال بين الفن المغربي الاندلسي والفنين المصري والعراقي السائدين في بجاية ومهدية وتونس الخضراء (20) وبذلك تبرزت الوحدة الحضارية بين جناحي العروبة واندرجت في المجتمع المغربي مصطلحات كانت مصارة الاحتكاك الموصل طوال خمسة قرون وبذلك يكون في وسعنا اعتبارا لهذه المعطيات ان نستخلص بعض الاتجاهات الاجتماعية والاقتصادية من خلال اسماء الحرف التي ظلت الى القرن الحالي الصناعة الاساسية لنصف سكان الحواضر (21) فمصطلحات الحرف بمراكش كانت تحتوي نظرا لقرب العاصمة من الصحراء على كلمات بلدية (22) او حضرية معدودة مثل بمدي (اي اسكاني بدوي) وخطاطري (حفار الخطارات اي

السواقى الصحراوية) وتكموتي (صانغ) وقراشلي (حلاج) في حين توخر بالالفاظ العربية التي حرف بعضها تسجيلا للنطق بها مثل بامهاود (اي حكم يتدخل بين الناس للمهاودة) ومواكسي (مصلح المنجانات) وغواسلي (بائع الفاسول) وظل معظمها مما يتيف على المالة في قلبه العربي الفصيح مثل التبان (بائع التبغ) والحرار والحرث والحمار والحماني (بائع الحمام) والخراط والرحوي (صاحب الرحي المائية) والطاھوني (صاحب الطحنة او الطاحونة التي تدار بحركة بفل او حمار) والرخامي (صانع الرخام) والزيات والسفاط (صانع الاسفاط اي السلال) والعشاب والقطارني (بائع القطران والبلاد (صانع اللب) . اما مصطلحات الحرف والمؤسسات العمومية وغيرها بفاس فاذا استثنينا بعض الدخيل فان الكلمات البربرية اقل بينما تظهر الفاظ خاصة مثل مقدم الحومة ودار معلمة (وهي مدرسة لتعليم الخطابة والتطريز للبنات) وشيوخ الفلاحة (وهم خبراء في الشؤون الزراعية من اصل اندلسي) ودار العميان والمرفطار وسوق الفرش (اي صنع المخاد والحشاي) ومعاصر الزيت وكعب فزال (فارسي) والبلاجة (صانع الاقفال) وصناع الاسلحة الاختصاصيين مثل الجمابية (لصنع جباب المسدسات) والسراير

(18) وقد امر المنصور الموحي « بقطع اللباس الغالي من الحرير والاجتزاء بالرسم الرقيق الصغير ومنع النساء من الطرز الحفيل والاكتفاء منه بالساذج القليل وامر باخراج ما كان في المخازن من ضروب ثياب الحرير والديباج المذهب فبيعت ... » (البيان المغرب لابن عذارى ج 4 ص 81) ففي زمن المنصور والناصر الموحيين كان عدد الاطرزة بفاس 3094 ودور الصابون 47 ودور الدباغة 86 والصباغة 161 وتسكيك الحديد والنحاس 12 والزجاج 11 وكوش الجير 135 وافران الخبز 1170 واحجار صنع الكافد (اي الورق وهي كلمة تركية) 400 ودور الفخارة 180 (زهرة الاس للجزنائي ص 33) وقد بلغت الارحي بفاس 600 في القرن السابع (حسب ياقوت المتوفى عام 626 هـ في معجمه ج 6 ص 331)

(19) المسند الصحيح الحسن ص 65 - 1925 .

(20) ويليام مارسلي (كتابته حول تاريخ الفن الاسلامي

(21) راجع احصاء قام به ماسينبون عام 1923 - 1924 في كتابنا (معطيات الحضارة المغربية ج 2 ص 78 . وفي كتابه (الحناطي الاسلامية - باريس 1925 ص 38 وقد كان نظام الحناطي (اي النقابات العمالية) ينقسم في جميع المصور بطابع الحرية حيث ظل المخزن يحترم مبدأ الحرية التجارية والاقتصادية قبل صدور ظهير 1917 القاضي بتنظيم البلديات

(22) الجاحظ يسمى العامية لغة المولدين او البلديين (البيان والتبيين ج 1 ص 111)

فرت المنسوجات العربية الاقطار الاوربية حتى اضطر احد ملوك فرنسا الى تحديد ايرادها « اعراف المسلمين وعاداتهم » (ص 247) .

وقد شمل التمریب معظم المواد والآلات والاجهزة والادوات التي استعملها الصانع المغربي الى العصر الحديث وتكفي القاء نظرة على معجمنا « الاصول العربية في العامية المغربية » للتعرف على مدى فصاحة الاستعراب في هذه المفردات التي نجد منها في الصفحات الاولى للمعجم الفاظا كالاشفى (مخزول الاسكافي) والبريمة والبرمة والبرميل والبوطة والبلور والتبان والترس وتفصيلة الثوب وتكرشه (تقيضه) والتكة والتنجرة والثومة (القرط) والشج والحبل (لفظة يمنية) والحنوط والخرقرة والخميرة والخنجر ، ثم ان الفكر العلمي الاندلسي الذي حماه البلاط الموحدى بمراكش لم يكن ليلخو من مظاهر اجتماعية تمثله مثال ذلك البيمارستان (24) الذي احتوى على « النقوش البديعة والزخارف المحكمة » وغرست فيه « الاشجار المشجومات والماكولات » واجريت فيه « مياه كثيرة تدور على جميع البيوت زيادة على اربع برك في وسطه احداها رخام ابيض » وما له من « الفرش النفيسة من انواع الصوف والكتان والحريير والاديم » وتزويده بالادوية والصيدالة « لعمل الاشربة والكحول » مع ثياب الليل والنهار للمرضى ومجانبة العلاج ورعاية المنصور الموحدى الشخصية له بزيارة اسبوعية لتفقد حال المرضى وقد اشاد مؤرخ فرنسي معاصر بهذا المستشفى الذى بد فى نظره مستشفيات باريس فى هفتوان القرن العشرين (25) .

وسترى كيف بلغ المصطلح العلمي اوجهه فى هذه الفترة التى ماوى خلالها العرش المغربي فى ظلال مراکش الحمراء اقطاب الفكر الاندلسي الذين مهدوا بكشوفهم العلمية فى شتى الميادين عهد النهضة والانبعاث بأوربه حيث ظلوا اساتذتها المرموقين طوال قرون .

لصنع مقابضها) والجوايين (لصنع الاغمدة) الصقالة والدهابين والسكاكين والبراولية (باعة خيوط الحرير) والزرداخية (باعة القماش من نوع لزودخان) والنيارة (صانعو نول النسيج) واذا خلدنا مثالا لباقي المدن المغربية فى شخص اصغر مدينة وهي ميناء ازموور لاحظنا وجود معظم هذه الحرف عدا التنويع فى النسيج وحرف جديدة لحرفة البغازة وهم بالمو السمك بالجملة والشرابة بهم مجففو الحوت ، وهناك الفاظ مغربية اندلسية يتكررة نجدها فى كتابات تطور الفكر والحضارة الخ . شمل القبال والقابض بدل الجمركي او لجابي وقد استند السيد محمد كرد علي لهاتين كلمتين للتدليل على اصالة الابداع اللغوي فى المغرب والاندلس (عجائب اللهجات - مجلة مجمع اللغة العربية ج 7 ص 128 عام 1953) ويلوح لاول هلة من مقارنة نوع المصطلح فى عاصمتي الشمال الجنوب مدى تاثر فاس بالحضارة الاندلسية حيث دات تظهر مؤسسات اجتماعية واختصاص ادق فى مضى المرافق الصناعية بالعاصمة الادريسية ولا بدع بى ذلك اذا اعتبرنا ان مدينة فاس اصبحت فى عصر لموحدين « حاضرة المغرب » الفكرية اجتمع فيها علم القيروان وقرطبة « ولا يوجد فى الدنيا اكثر رافق واوسع معاش واخصب جهات منها » كما قول المراكشي بشيء غير قليل من الفلو على ان لفن بفاس اصبح مزيجا للكثير من العناصر لمربية فاذا ضربنا مثلا بالزليج الذي عرف فى الشرق الفسيفساء لاحظنا انه نوع من الترميع الخزفي صله من الاندلس كان يصنع منه بالاندلس نوع من لمفضض المعروف فى الشرق بالفسيفساء (التفتح نقلا من ابن سميذ ج 1 ص 187) والترميع هو التكتيت (كلمة تركية) لها مرادفات منها التلبيس والترسيب والتزويل اصحها عند العرب فى العهد العباسي التطبيق وفن الترميع سوري فى اصله بحرف باوروبا الى الان بالفن الدمشقي Damasquinage وقد دخل الفن العربي الى ايطاليا وبعد الحروب العليبية

(23) « المعجب فى تلخيص اخبار المغرب » طبع بسلا عام 1357 - 1938 (ص 213 - 221) لعبد الواحد المراكشي

(24) نفس المصدر ص 177

(25) الموحدون Les Almohades للسيد Millet - طبعة 1927

غير ان هذه المظاهر الحضارية لم تتجاوز المدن لان البادية (اي الارياك والسواد) ظلت تسببا في معزل عن تياراتها بسيطة في سكنها ومطعمها وسلوكها قد حفظت ثرائها لغويا اصيلا ما زالت الحواضر تطعمه تدريجيا استجابة لقتضيات العصر وسنرى كيف ان قبائل عاشت في ارباض حواصم كرباط الفتح ظلت عالقة الى عهد حديث بترائها اللغوي الجاهلي الغالي من اية شائبة الامر الذي اسفر عن نوع من الخلل بين المصطلح الكلاسيكي القديم ومولدات العصر الحديث .

وقد توافرت هذه المجالي الحضارية ولوازمها اللغوية العربية التركية في العصر السعدي عندما اقتبس المغرب بعض الانظمة العسكرية العثمانية كما دخلت الى المغرب افواج المهاجرين الاندلسيين (29) بلغت في مدن كتطوان اربعين الفا فيهم الاديب والعامل والفنان والعامل المختص والتاجر والفلاح واذا كانت هذه المظاهر تنمكس على العادات الاجتماعية والمأثر العمرانية ، فاننا نلاحظ في خصوص الازياء ان سكان حواضر اندلسية مثل فاس وتطوان والرباط اصبحوا يضعون على رؤوسهم قلائس حمراء قد لفـ عليها عمامة تتوسطها شوشة زرقاء (اي خيوط مدلاة او النواصة) بعد النفي العام اوائل القرن السادس عشر الميلادي لان الشوشة الزرقاء لم تكن معروفة بالاندلس قبل عصور التفتيش الصليبي (Inquisition) حيث اجبر الاسبان العسـود المسـيحيـن على التميز بشارة زرقاء

اما المريثيون الذين كانت لهم ارقى القومـات الملكية بالمغرب وانهاها واحقها بتبني التراث الموحي في افريقية والاندلس فان مغربهم الزاهر كان منطلق الاشعاع في مجموع الشمال الافريقي (26) حيث تبلورت مدنيته الحضارية في اروع ما عرفه المغرب الكبير من حواضر ومساجد ومعاهد وقبب وفنادق ومدارس وملاجيء وحمامات وقناطر وحصون وخاصة في عهد ابي الحسن المريني 731 هـ - 752 هـ 1331-1351م الذي يعتبره الغربيون اقوى عاقل في القرن الرابع عشر وقد كان لتزاوجهم الحضاري مع غرناطة النصرانية وادنة الاندلس ذبول عززت التراث المشترك الذي ما لبث ان انتقل بكامله مع رجال الهجرة الى المغرب ليشكل الحضارة المغربية الاندلسية الموحدة . وقد ظهرت في الحقل الاجتماعي لأول مرة مدارس هي عبارة عن احياء جامعية مجانية للطلبة في مختلف المدن كفاس وتلمسان والجزائر (27) علاوة على قصور فخمة تجلت فيها مهارة المهندسين والفنانين في تصميم معماري محكم ويمكن ان نقدر من خلال وصف (28) لاحد هذه القصور مدى تطور المصطلح الفني والانواع الجديدة من ارباب الصناعات كالبنايين والنجارين والجباسين والزليجيين والرخامين والقنويين والدهانين والحدادين والصنارين والجدران المنقوشة بالجبس والزليج والارز المحكم التجارة والصناعات المشتركة كالنوبريق والتسطير) مع فروش الرخام والزليج وطياير (فسقيات) المرمر والقبب والخوخ (اي الابواب) والخزائن بنحاسها الموه بالذهب والحديد المقصود «

(26) مارسى Marçais - في كتابه « L'Art dans l'Islam » حول تاريخ الفن الاسلامي ص 134 ، وقد ظهرت في هذا العصر نتيجة للتأثير الفرناطي الموسيقى الاندلسية بمصطلحاتها وبعض التعابير القانونية مثل لفظة الظهير بمعنى المرسوم الملكي .

وقد اسهم العلماء والادباء في الصناعة والتجارة مما اكسب الكثير من المصطلحات طابعا فصيحا ومنهم محمد الفسائي الذي كان تاجرا بقيصرية واسفي يدبر حانوته بعد الفراغ من تدريس الموطا والسير والنحو والادب واللغة وهو من رجال القرن السابع (تونس عام 663 هـ) (الدليل والتكملة) ومنهم كذلك العلامة محمد بن عبد الله من الذي كان يتمشش (كلمة مغربية معناها يتمشش) بعمل دود القز بفاس (نشر المثاني في ترجمة علماء القرنين الحادي عشر والثاني ج 1 ص 197) .

(27) نخب من « المسند الصحيح الحسن في مآثر ابي الحسن » لابن مرزوق .

(28) نفس المصدر حيث اشار ابن مرزوق الى وضع تصميم معماري لهذا القصر وصفه بأنه رسم في كافد لتقدير الساحة (اي المساحة) .

(29) في عام 1019 هـ هاجرت الوف الاندلسيين الى فاس والوف الى تلمسان وجمهورهم من تونس فتسلط عليهم الاغراب ونهبوا اموالهم في تلمسان وفاس وسلم اكثرهم في تونس وتطوان وسلا ولسعة الجزائر ووصل جماعة الى قسطنطينية العظمى ومصر والشام (نشر المثاني عن النسخ ص 101) .

ولباس البياض في مناسبات وفصول خاصة هو ايضا عادة اندلسية حيث كان هؤلاء يخلعون الثياب الملونة ويلبسون البياض ابتداء من يوم المهرجان (اي العنصرة كما تسمى في العدوتين) أي 24 يونيه وذلك الى اول اكتوبر خلال ثلاثة اشهر متوالية (النفع ج 2 ص 752)

اما في الحقل العمراني فان « قصر البديع » الذي استغرق بناؤه زهاء العشرين سنة (986 هـ - 1002 هـ) يبرز لنا مدى التطور الحاصل في الفكر الحضاري ولغته فقد ظهرت مع فنون طريفة مصطلحات جديدة كالرخام المجزع والزليج الملون والقباب الخمسينية (31) كتبت في ابهاها الاشعار بمرمر اسود في ابيض تذكرنا بروائع الاندلس : فمن شعر ابي فارس مبد العزيز الفشتالي يصف هذا الفن قوله :

فانها والتبر سال خلالها
وشي وفضة تربها كافور
وكان ارض قراره ديباجة
قد زان حسن طرازها تشجير
وكان موج البركتين امامه
حركات سحب صافحته دبور
صفت بصفتها تماثل فضة
ملك النفوس بحسنا تصوير

وقد كتب بجدوان المصرية (32) المظلة على الرياض :

باكر لدي من السرور كؤوسا
وارض النديم اهله وشموسا
وكان هذا الاطار العمراني الرائق مسرحا
لحفلات شعبية بمناسبة حفلات ذكرى المولد النبوي
يجري خلالها اعداد ابناء المعوزين ويتبارى
الشماعون في تطريز شموع « يحملها صحافون -

كما يقول الفشتالي في مناهل الصفا - محترفون يعمل خدور المرائس عند الزفاف » وهي على رؤوسهم كالمذارى تتبعها الاطبال والابواق واصحاب المازف والملاهي حتى تسوي على منصات بالديوان الشريف حيث يقعد السلطان على اربكته وعليه حلة البياض شعار الدولة وامامه شموع من بيض كالدمى وحمرة جلبت في ملابس ارجوان وخضر سندسية في حسك ومباخر ترنم خلالها نوبات منشدي المولدات واشعار الصوفية وتلى قصائد شعراء الدولة يفرلها ونسبها ومديحها للرسول عليه السلام وللسلطان وولي مهنه في تراتيب يتقدمها قاضي الجماعة ثم الامام المفتي ثم الوزير ثم الكتاب المخزيون ويختم الحفل بنشر « خوان الاطممة والموائد » و « توزيع الاعطيات » وكان هذه القصور الباذخة في فرشها الحريرية ونماذجها المصطفة واستارها وكلها وحجالها المخصوصة بالذهب وحائطياتها ووصفانها واعلاجها باقبيهم المخصوصة ومناطقهم المرسعة وحزمهم المدهبة (33) - صورحية لفخخة استمرت معالمها في القرن العشرين في بلاط الملوك العلويين وقصور الاثرياء حيث استفيض عن القناع المائقة والبنسية المدهبة وعن الاواني التركية والهندية والطسوس والاباريق والصحاف ومباخر العنبر والمواد الشرقية باومية لا تقل روعة قد جلبت من مختلف انحاء الدنيا شرقا وغربا لتضفي هالة من الجمال والسناء على محافل نشرت فيها كالماضي اقصان الريحان الفضي وماء الزهر والورد . كما استبدلت بنوبات المنشدين نوبات الموسيقى الاندلسية الرائعة التي تسحر الالباب بنغماتها المشجية وتلاحيها الاخاذاة والوانها الخمسة والخمسين وتوشيحاتها التي تتردد في حنان وخشوع على اسنة الخاصة والعامة لتسهم في تحريك نبرات القلوب وتوعية الروح وتاجيج الشعور وتوفير الشراء اللغوي في الدارجة والفصحى على

(31) اي التي فيها خمسون ذراعا بالعمل اي بالنقش وكانت الجدران تحلى احيانا بانواع التطريز ومنه النوع الفاسي الذي هو سوري الاصل . وفي سلانماذج من اصل فارسي او شامي ويلاحظ في تطريز الرباط تاثير الانسجة الاوردية وكذلك في ازمور التي يرجع تاريخ نماذجها الاسبانية الايطالية الى القرن العاشر الهجري (مجلة هسبريس ج 21 عام 1935) .

وهناك بنافس تطريز علجي الاصل ادخلته الى المغرب النساء التركيات او الجركسيات اللواتي تسرى بهن اهل فاس اما التطريز التطواني فهو من اصل بلقاني .
(32) المصرية اي الفرقة الواقعة في طبقة عليا ولعل لوجود طبقات في (الابنية منذ التقديم بمصر انرا في التسمية .

(33) راجع النفعة المسكية في السفارة التركية لعل بن محمد التامجروني .

السواء فكم من تعابير تخلت الإلحان كانت أرسخ في
البواطن وأملك للومي وكم من الهنيات ساحرة
رددتها الرضيع في حبه وربة الخلد في حجلتها كان
أثرها أوقع في النفس ولفظها أعلق باللسان من كل
قعيد يلقي في الكتاب أو درس لغوي يلقي في حلقات
المعلم .

وإذا كان عهد السعديين قد نفذت معالمه
بالزخارف المعمارية والروائع الاجتماعية فإن عهد
العلويين الذي أقيمت فيه نفس القصور والبساتين
مثل دار الهناء والدار البيضاء والصالحة والزاهرة
وجنان رضوان وأجدال بنفس أنبلخ قد اتجه إلى
دعم الكيان بالقصبات والقلاع ومن أروع ما يدهك
في قصر من هذه القصور كقصر الرياض بمكناس
عاصمة المولى اسماعيل جمعه بين فخفة البلاطات
الملكية وضخامة التحصينات بأبراجها ومدافعها أزام
البرك الفيضة للتمريين والأنبساط في فلكها
وزوارقها وكانت أهراء القصر تضم اثني عشر الفا من
خيل الجهاد وعشرات المستودعات زاخرة بمؤن تكفل
للبلاد اكتفاء ذاتيا وميزانا تجاريا متوازنا وقد بدنا
بالرغم من أصالة اللغة العربية بالمغرب نسمع في
معماريات العلويين وعمرانياتهم مصطلحات جديدة
فيها الكثير من الدخيل كالتقنايط (أي الهياكل)
المقبوة في الأهراء والأصطبلات المسقفة بالبرشلة
أوهي نوع من أنروافد والعوارض (Pignon) وسواني الماء
الدائرة (أي التوامير المائية) والقرايمد علاوة على
المولدات العسكرية والدبلوماسية واتخاذ الأشرار
أي حفر الخنادق الحربية (ومنح البارود والكور
والبنب (أي القنابل والقذائف) ونصب المهاريس
والكراريس (أي المدافع المجروزة والضوئي) لتحرير
الثغور المحتلة وبمات الباشدورات إلى طوافية (جمع
طافية) الأصنيول أو البرتغال أو «النجليز» لأحكام
الصالح ومفاداة الأسرى البلوط بالبلوط واليكانجي
باليكانجي والبحري بالبحري دعما للطبجية (أي

المدفعية) والبحرية المغربية بفلاطها (سفنها الحربية)
وفراكلها (أي حراقاتها) ومراكبها القرصانية. ودخلت
إلى المعجم المغربي بجانب ذلك عشرات المفردات مثل
الكشينة والباصبورط (الجوان) والطنبور والكرنتينة
(الحجر الصحي) والمحلة (أي المسكر) وصاكة
الإشمار (أي رسومها) وصقالة (أي برج) والتوافل
(الرماح) وتفرق البونب (أي انفجار القنابل)
وابستيون (34) وأنواع النقود كالبندقي في أربعين
أوقية من الذهب والفضلون (Doublon) في
النين وثلاثين من الريال (الريال Real) فيه
عشرون أوقية) والبسيطة (خمس أواق) والموزونة
(ربع الدرهم الرباعي أي نصف القرش) والسنجق
وبقسماط (بكوت) وكل تلك مظاهر للمجعة
التي بدأ المجتمع المغربي يتسم بها حيث «أخذ
ذوو اليسار - كما يقول الناصري (35) المراكب الفارغة
والكسي الرقيقة والدخائر النفيسة وثائقوا
في البنيان بالزليج والرخام والنقش البديع لاسيما
بغاس ورباط الفتح ولاحت على الناس سمة الحضارة
الاعجمية» التي تمزجت مع ذلك بمقتبسات غريبة
صالحة مثل فابريكة (أي مصنع) السكر وفابريكة
تزدحج البارود بمراكش وبرج الفنار (لتوجيه السفن
في البحر) باشقار قرب طنجة وبابور البر (التطارد
الحديدي) والتفراف وهكذا إلى غير ذلك وهكذا
بدأت تتجلى في الأفق المغربي على متبة القرن
العشرين مصطلحات استعملها المغرب في قلبها
الأفريقي دون تعديل وسنرى بحلول الله خلال
حديثنا من تطور هذا الدخيل خلال الحماية وبعد
الاستقلال كيف تمت وحدة نسبية بين جناحي
العروبة عندما ظهرت الصحافة المغربية وأشرابت
الاعتناق إلى ما يرد من الشرق العربي وخاصة من
الشام ومصر حيث انبثقت حضارة طريفة ضمت
إلى جوهر الإسلام ومعطياته جوانب من الفكر الغربي
الحديث .

(34) استعمل الناصري في تاريخ المغرب هذه المصطلحات التي بدأ يستعملها وأنداك سلفه من
المؤرخين وقد استعرض الناصري (ص 224) النظام العسكري عند الأتراك فلاحظ أن أهم ما
يمتازون به هو العزوف عن العادات الأجنبية والمصطلحات العجمية حيث «ممت المصيبة في مسكر
المسلمين بالتخلق بخلق المعجم وإذا كان أصل العمل مأخوذا من المعجم فليجتهد المعلم الحاذق في
تعميره» . (راجع الاستقصا الجزء الرابع)

(35) الاستقصا ج 4 ص 233 يصف الوضع بالمغرب عام 1290 هـ وقد شارك الصانع المغربي في
معرض باريس عام 1285 هـ (أي في عهد نابليون الثالث) بنماذج من إنتاجه كالسروج
المذهبة والمناطق المزخرفة والقطائف المنمقة والزليج الفاسي والمطمين الذين يباشرون ترصيعه

الفكر الشقافي

(أ) اللغة والأدب

لعل أول انطلاقة أدبية بلغة الضاد في المغرب الأقصى هي خطبة طارق بن زياد المشهورة التي أُنذر فيها الجيش البربري الفتي بأنه أصبح في الأندلس « أضيح من الإبتام في مادية اللثام » وهي خطبة حماسية أقرب إلى صرخة مسكوية بالفاظ نارية ومر نحو القرن (92 هـ - 188 هـ) بين انطلاقة الفاتح البربري نحو الأندلس وبين اعتلاء إدريس الثاني العرش خلا المغرب في غضون من أي جو أدبي لأن العربية نفسها كلغة ظلت تتعثر فذلك كانت خطبة العرش الإدريسية هي الانتفاضة الأدبية الثانية القاهها وهو ابن إحدى عشرة سنة .

وقد ورد فيها بعد الديباجة المألوفة : « أنا قد ولينا هذا الأمر الذي يضاعف للمحسن فيه الأجر وللمسئء الوزر ونحن والحمد لله على قصد جميل فلا تمدوا الإعتاق إلى غيرنا فإن ما تطلبونه من إقامة الحق إنما تجدونه عندنا » . وما لبث أن وإلى خطبه الرائعة كالتى القاهها عندما فرغ من بناء فاس : « اللهم أنك تعلم أنني ما أردت إنشاء هذه المدينة مباهة ولا مفاخرة ولا سمة ولا مكابرة وإنما أردت أن تعبد فيها ويتلى كتابك وتقام حدودك » فهذاان الخطبتان وإن كانتا هاديتين في أسلوبهما فإنهما يرمزان إلى مدى نفوذ العربية خلال القرن الثاني الهجري في المغرب لا سيما وأن المولى إدريس كان لا يزال شابا يافعا قد تربى في بيئة بربرية غير أن الوسط الضيق الذى عاش فيه كان مريباً في روحه ولفته (1) قد دعم بمسات من الحرس القيسي واليمني علاوة على أدباء أمثال ولیره عمرو بن مصعب الأزدي وقاضيه عامر القيسي تلميذ الإمام مالك وكتبه عبد الله الخزرجي ، وبدأت منذ هذا العصر أفواج من المغاربة تتجه نحو الشرق للحج فتقطع الفيافي طوال شهور مجددة العلة بالعلماء والأدباء من الجزائر إلى مصر إلى اليمن والحجاز لدعم أسانيد الغرب بأسانيد الشرق في التفسير والحديث والتصوف واللغة والأدب وكان البعض يستقر في حواضر شرقية فترة تقصر وتطول

حتى تقوى ملكته في الأدب واللغة فإذا عاد إلى المغرب كن أسهامه أوفر وأبلغ في تحقيق التزاوج الفكري بين جناحي العروبة والإسلام غير أن الفكر الأدبي في هذه الفترة كان لا يزال في مخاض قد طفت عليه الاتجاهات الدينية والفقهية والعقائدية فسمكو المدراري بسجل ماسة قد سمع من عكرمة في نفس الوقت الذى أخذ محمد القيسي عن مالك وسفيان وحمل أبو جيدة الفاسي في أوائل القرن الثالث التفاريع المذهبية فكان التبادل محدوداً بين الشرق والغرب هذا من طريق الأندلس إلى أن انبثق العهد البربري حيث بدأت رحلات رسل الفكر تتوالى من الشريف الإدريسي إلى ابن جبير وابن رشيد والمبدري وابن بطوطة وابن خلدون والحسن الوزان ومات الآخرين (2) الذين أساروا إعجاب زملائهم في العواصم الإسلامية بما أنتجته قرائعهم وأبدوه في مناظراتهم من عمق في الإدراك وبعد في النظر ودقة في التحليل في أسلوب كلاسيكي أمسى موحداً حتى ليصر على القاري أن يشيخ بوضوح جنسية الكتاب والقصيد والخطاب لتتأسق المصطلحات وتجاوب الدلالات وإذا كانت هناك فروق نسبية في منهجية التفكير والوان التعبير فهي تكمن خاصة في الدراسات العلمية التى سنستعرض بحول الله جوانب منها من خلال الكشف المستعدة في الإطار المغربي .

وقد بلغ التجاوب مبلغاً حداً بعض نقاد الفكر إلى التنظير بين أدباء وشعراء من الشرق والمغرب الأقصى والأندلس فمئذ المصور الأولى حدثنا البكري عن محمد بن حبوس الفاسي الذي نهج في منحاه الشعري نهج محمد بن هانيء في « قصد الالفاظ الرائعة والقماقم الموهلة وإيثار التقدير » بينما لقب ابن هانيء بمثنبي المغرب وكان الشرق يتغنى بشعر المغرب والمغرب يردد تلاحين الشرق فهذا أبو هارون موسى بن عبد الله الإغماتي الذى بلغ في جولته بلاد سمرقند يقول :

لعمر الهوى أنى وإن شطت النوى
لذو كبد حرى وذو مدمع سكب
فان كنت في أقصى خراسان ناويا
فجسمي في شرق وقلبي في غرب

(1) راشد مولاه هو الذي أقرأه القرآن وهو ابن ثمان سنين ثم علمه الحديث والسنة والفقه والدين

واللغة ورواية الشعر وأمثال العرب وحكمها (الاستقصا ج 1 ص 70)

(2) راجع بحثنا « رسل الفكر بين المغرب والشرق » (معطيات الحضارة المغربية ج 1 ص 72) .

وهذا المهدي بن تومرت يتمثل دوما بقول
المتنبي :

إذا غامرت في شرف مروم
فلا تقنع بما دون النجوم
ومن شعره :

أخذت بأعضادهم إذ نأوا
وخلفك القوم إذ ودموا
فكم أنت تنهى ولا تنتهى
وتسمع وعظما ولا تسمع
فيا حجر السن حتى متى
تسن الحديد ولا تقطع ؟

وكانك وانت تسمع خطاب أحمد بن عطية لعبد
المومن الموحد تلمس نبرات شعر حبيطة وهو
يتشفع الى عمر بن الخطاب في فلداته :

وصبية كفرأخ الورق من صفر
لم يالفوا النوح في فرع ولا فنس
قد أوجدتهم إباد منك سابقة
والكل لولاك لم يوجد ولم يكن

وإذا استثنينا محاولات نادرة فان المغرب لم
ينجب فحولا امثال المتنبي والبحتري وأبي تمام ولا
امثال ابن خفاجة الإدلسي في وصف الطبيعة :

ومن هذه المحاولات التي اكتفت بوصف حركات
خارجية دون استبطان الخواص الدقيقة واستكناه
الخلجات قول ابن مجير يصف خيل المنصور وكأنه
يستعرض ما استعرضه الشعالي في « فقه اللغة »
من ترايب وتدرجات في الألوان مع مجاز رقيق :

مرأى اغتنها الحبول من الحل
فلم تبغ خلخال ولا التمسث وقفا
فمن يبق كالطرس تحسب أنه
وان جردوه في ملأه التفافا
وأباق اعطى الليل نصف اهابه
وغار عليه الصبح فاحتبس النصفاف
وورد تغشى جلده شفق الدجا
فاذ حازه دلى له الذيل والعرفا

واشقر مع الراح صرفا اديمه
واصفر لم يمسح بها جلده صرفا
واشهب فضي الاديم مدنر
عليه خطوط غير مفهمة حرفا

وهذا التسراد اللغوي الذي لم يكن يخلو من
روائع بدعية قد انعكس على لغة العامة في مزاولاتها
اليومية حيث دخلت في معجمها الدارج اسماء
عشرات الألوان كالادكن والابلق والارقط والاشخم
والاشقر والاشهل والافر والبرقش والخمري
والبريش (أي مختلف الألوان) (3) .

وتسم خطب السياسيين المرابطين منهم
والموحدين بالطابع الصوفي مع الضرب على نفس
الآوتار فمن قول عبد الله بن ياسين : « إياكم أن
تجنوا وتفشلوا فتذهب ربكم وكونوا أمة وأعوانا
على الحق وأخوانا في ذات الله وإياكم والمخالفة
والتحاسد على طلب الرئاسة » . ومن نداء وجهه
المنصور الموحد لجيشه بالاندلس يحضه على
الاستماتة : « شمروا عن ساعد الجد معاشر المسلمين
في جهاد المشركين فمن مات منكم مات شهيدا
ومن عاش عاش غانما ماجورا حميدا » . ففي كليهما لون
من المفاهيم وضرب من التعبيرات كاد يصطبغ بها الأدب
في شتى مجاليه فاستمع للقاضي أبي حفص بن عمر
يتحدث عن علم القدماء : « إياكم والقدماء وما أحدثوا
فانهم عن قولهم حدثوا ، أتوا من الافتراء بكل أعجوبة
وقلوبهم من الأسرار محجوبة » .

ومن الإخوانيات (4) التي ضاهت أدوع ما
عرفه الشرق في العصر الفني للنثر رسالة للقاضي
عباض الى الفتح بن خاقان جاء في مطلعها : « عمادي
أبا نصر مثني الوزارة ووحيد العصر هل لك في منة
تفوت الحصر تخف محملا وتبلغ املا وتشكر قولاً
وعملاً شكراً تترنم به الحداة ثقلاً ورسلاً .. الخ » .
وأخرى من ابن هانيء السبتي متنبي المغرب أجاب
بها أبا القاسم الشريف عن قصيدة أهداها اليه جاء
فيها : « .. والآن لا ملهج ولا مبهج ولا مرشد ولا
منهج عكست القضايا فلم تنتج فتبذل القلب الذي
ولم يرشح القلم الزكي وهم الانعام وهم الاحجام
وتمكن الاكداء والاجبال وكورت الشمس وسيرت

(3) اقتصرنا على نماذج قليلة من معجمنا « الأصول العربية والاجنبية للعامة المغربية »

(4) ومما امتازت به الإخوانيات عند أهل المغرب كون الخطاب فيها خطاب المواجهة مثل أنت وأنا ..
وربما خاطبوا الواحد منهم بيمين الجمع .. قال ابن شيت في معالم الكتابة « ولا يعرف ذلك
لغيرهم أصبح الأعشى ج 8 ص 148 » .

الجبال وعلت سامة وغلبت ندامة وارتفعت ملامة
وقامت لتومي الادب قيامة حتى اذا ورد ذلك المهرق
(5) وافرغ لخصه الورق تفنى به الحمام الاورق
واحاط بعداد مداته الفصص والشرق وامن من
الفصب والسرقة واقبل الامل وذهب لاقباله
الفرق ... »

ولم يكذب ببلوغ فجر العصر المريني حتى بدأ
المزيج الاندلسي المغربي يتبلور فظهر علاوة على ابن
خلدون امثال ابن الخطيب وابن زمرك وعشرات
الشعراء والمؤرخين والادباء الذين اذكت شعورهم
نكبات الفردوس المفقود وقد افاد الادب المغربي من
هذا الفيض الذي غمر العواطف وانطق اللسان
وحرك الاقلام واسال الشاعريات، ولعل من اروع
ما نظم في هذا الباب الملحون الذي نظم منه الشيء
الكثير امثال الشيخ محمد بن عبد الرحيم بن
يجيش التازي والشيخ المجاهد محمد بن يحيى
الهلولي الذي قرض الى جانب ذلك اشعارا
وزجليات تترقق عاطفة وحماسا .

وكان نعيب الشعراء ينسكب في مراثي
محزنة كلما استولى العدو على مكنى من مكنى
الاندلس او مربع من مرباعه ولعل من اشد القصائد
تأثيرا تلك التي نظمها شاعر مغربي او اندلسي
مجهول لم يثر على اسمه حتى الآن لما فيها من
المعاني الجريئة وقوة الحماس ومرارة الواقع وقد
قيلت بعد سقوط طليطلة منها :

لتشكل كيف تبسم الثغور
سرورا بعد ما بثت ثغور
لقد خضعت رقابكن لعلبا
وزال متوها ومضى الثغور

الى ان قال :

فلا تهنو وسلوا كل غضب
تهاب مضاربنا منه التحور
انترك دورنا ونفر عنها
وليس لنا وراء البحر دور ؟

رضوا بالرق يا لله ماذا
رآه وما اشار به مشير

وقال الامام السبيلي عندما خرب العدو مستط
رأسه سهيل :

يا دار ابن البيض والارام
أم ابن جيران علي كرام ؟
راب المحب من المنازل انه
حبا فلم يرجع اليه سلام

وكان ابرز ما يمتدح به الملوك اباؤهم وسهرهم
الدائب على حفظ كيان الوطن ولو اداهم ذلك الى
تقلد الحسام والاستشهاد فقد قال ابو بكر محمد بن
صاحب الصلاة عندما قام خطيبا في وفد الاندلس
مام الامير عبد المومن الموحي :

هم الالي وهبوا للحرب انفسهم
وانهبوا ما حدث ايديهم الصفدا

وقد كان لامثال هذه الحماسيات اثر بليغ
حيث اذكت نفوس الجماهير والهبت احساسهم
واهابت بالملوك لنجدة الاندلس المهدد حتى قال ابن
الخطيب موجها مديحه لسلطان المغرب ابي عنان
المريني .

والناس طرا بارض اندلس
لولالا ما وطنوا ولا عمروا

وجملة القول انه وطن
في غير عليك ما له وطر

وقد اوى ملوك المغرب لاجئي الاندلس ومهدوا
لهم سبل الحياة الناعمة حتى قال ابن زمرك متشكرا
للسلطان ابي سالم المريني :

كم من طريد نازح قدفت به
ايدي النوى في الفقر رهن سفار

بلغته ما شاء من اماله
فسلا من الاوطان بالاوطار

صيرت بالاحسان دارك داره
تمت بالحنى وعقبى الدار

ومدحه ابن الخطيب بقوله :

ودم والمنى تدني اليك قطيفها
ميسر اوطار ممد اوطان

(5) يلاحظ هنا استعمال ابن هانيء لكافة مدق وهو صحيفة بيضاء او ثوب الحرير الابيض يستى
الصمغ ويصقل ثم يكتب عليه وقد قابل به مجمع مصر كلمة Stencil

وكان الشعراء يرسلون زفرات على انتشار عقد
الاندلس الذي ظل منتظما نحواً من ثمانية قرون حتى
صاح بعضهم حيرة وتحرقاً :

كيف السبيل الى احتلال معاهد
شب الاعاجم دونها هيجاءها ؟
وقد قال ابو البقاء صالح بن شريف الرندي :
لمثل هذا يدوب القلب من كمد
ان كان في القلب اسلام وايمان
وقال ابو المطرف بن عبيدة الخزومي بعد
سقوط بلنسية :

يحن وما يجدي عليه حينه
الى اربع معروفها متنكر
ملاعب افراس الصباة والصباء
تروح اليها تارة وتبكر
الى ان قال :

وبالجبل الادنى هناك خطى لنا
الى اللهو لا تكبو ولا تتمش
كذلك الى ان صاح بالقوم صالح
وانذر بالبين المشتت منذر
وفرقتهم ايدي سبا واصابهم
على غرة منهم قضاء مقدر

وقال الكفيف وهو من فحول الزجالين بزرهون
يمدح السلطان ابا الحسن المريني بقصيدة ملحون
منها :

سكر فاس المنيرا الفراء
وبين سارت بومرايم
وقال ماخر يمدح السلطان :

اما الجهاد فقد احبى معالمه
وقام منه بمفروض ومسنون
واقام مفروض الجهاد بعزيمة
تركت بافئدة العداة فلولاً
والله ما ادري وقد حضر الوفي
احسامه او عزمه مقتولاً
حطت البلاد ومن حوته نفورها
وكفى بسمك حاميها للدار
وقال :

فما رؤوس الكفر الا حصائد
بسيفك سيف الله تجني وتقطف

وقال :

فاق الملوك بسيفه وبسيفه
فبمدله وبفضله يتمثل
وقال القائد محمد بن يحيى اجانا يخاطب
مولاي محمد بن الشريف على لسان الشيخ بن زيدان:
يا مالكا سعدت به اوطانه
فيما مضى وزها به المستقبل
نادى بك النصر العزيز لمغرب
ولكم على فاس الجديد الكلل

فاجابه محمد بن الشريف بقصيدة من انشاد
محمد بن سودة الفاسي :
ما من ملك ذاق لذة راحة
الا تجلى له الهوان فيفل
الى ان قال :

وانفض غبار الدل وارفض ثوبه
يزداد وجهك بهجة ويهلل
وهي من الشعر الجريء الذي يذكرنا ببعض
حماسيات شوقي التي كتبها حيث كان منفياً في
باريس الهب بها شعور مواطنيه .

وهكذا زخر الادب المغربي بمبارات والفاظ
حماسية كالغضب ومضارب النحور والسي والحزن
والتحول والرق والوطن والنزوح والاحتلال والامجاد
والعزم والثفور وقطف الرؤوس والنصر وغبار الدل
ومات اخرى تكاد تنفجر ايماناً وحيوية ولعل هذه
النبرات هي من افنى الآداب العربية في الحقل
القومي نظراً لتتابع الويلات على الاندلس وما كان لهذا
اللون من الحماسيات ان يتفتق بمثل هذه القوة في
الشعر العربي بالشرق الا ايام الحروب الصليبية
وعند احتلال نابليون لمصر وكانت الصدمة ورد
الفعل الوطني قويين لان المغرب ظل منذ فجر الاسلام
محافظاً بكيانه واستقلاله ولم يخضع حتى لدار
الخلافة العثمانية التي بسطت نفوذها على جل اقطار
الشرقين الادنى والوسط وبقاع شاسعة على طول
الضفة الاوربية للبحر المتوسط ولم ينح من نفوذ آل
عثمان حتى المغربان الاوسط والادنى فكان من الطبيعي
ان تنخفض في المغرب على اثر محاولات الاعتماد
الاجنبية في القرن التاسع حركة وطنية وطيدة افاد
منها تراثنا الفكري كنزاً ادبياً يكاد يكون فريداً في
بابه .

وقد عرف المغرب الوانا اخرى للشعر انظمت
باللق للملوك واحيانا بعمرائيات رقيقة واكبت الادب
الشرقي في مصره الكلاسيكي الذي حفل بالكليشيات
المتحجرة .

لمن ذلك قول ابي فارس الفشتالي ينوء بفتح
السودان :

جيش الصباح على الدجى متدلق
فبياض ذا لسواد ذلك يمحرق

وكانه رايات مسكره التي
طلعت على السودان بيضا تخفق

وعلى لسان قصر البديع الذي شاده المنصور
بمراكش :

سموت فخر البدر دوني وانحطبا
واصبح قرص الشمس في اذني قرطا

وصفت من الاكليل تاجا لفرقي
ونيطت بي الجوزاء في منقي سمطا

ولاحت باطواقى الثريا كأنها
نشير جمان قد تبتمته لقطا

وللقاضي ابي القاسم بن علي الشاطبي في مجلس
المنصور :

ما بال طيفك لا يزور لماما
وبمنعنى الاحشا ضربت خياما

ابميش فيك هواذلي لسلوهم
واموت فيك صباية وفراما

ولمحمد بن علي الهوزالي المعروف بالنابغة عند
ابلال المنصور من مرثيه :

تردى اذى من سقمك البر والبحر
وضجت لشكوى جسمك الشمس والبدر

وبايت الهدى خوفا عليك مهيدا
واصبح مدمور الفؤاد الندى الفمر

الى ان قال :

لئن صدف بيضى المعالي لقد هدت
تسيء الكماة البيضى واللدن السمر

وانشد محمد بن علي الفشتالي عند فتك
المجاهدين بالمدو في سبتة ايام المنصور (عام 996 هـ)

هذه سبتة عرف مروسا
نحو ناديك في شباب قشيب

وهي بشرى وانت كفو اللواشي
كافات بطلها بفتح قريب

وقال ابن القاضي عند تحرير اصيلا :

يا ايها المنصور ابشر بالعلسى
قاله ابلى في المدا الماسولا

انضامك سيفا لحنف عدائه
وبكم هذا سيف الردي مفلولا

وفي عهد السلطان الغالب بالله السمدي زار
وزيره وابن اخيه محمد بن عبد القادر مدينة فاس
صحبة عالمين هما قاضي الجماعة عبد الواحد
الحميدي واحمد المنجور فلما تبدت لهم معالم
المدينة ارتجل الوزير :

اخلائي هذا المستقى وربومه
وهذي نواخير البلاد تنوح

وذاك المولى مطرح الشوق والاسى
وتلك منازل الديار تلوح

فاجاب الحميدي :

وتلك القباب الخضر شبه زبرجد
بين لوان طرفهن جموح

يمس كاملود من الروض يانع
شدهن من حول الديار يفوح

فغقب المنجور مرتجلا :

ويرفلن في العلات يخلن في الحل
وليهن انواع الجمال وضوح

يبادرن ترقيع الكوى بمحاجر
لاقبال حب طال منه نزع

ومن شعر السلطان زيدان بن المنصور يتفزل
في السوالف والخدود :

فتنتنا سوالف وخدود
وهيون مدمجات رقود

ووجوه تبارك الله فيها
وشعور على المناكب سود

اهلكتنا الملاح وهي ظباء
وخضعنا لها ونحن اسود

ومن روائع النشر ما كتب به المنصور الذهبي الى الشيخين البدر القراني والزين البكري : « هذا وانه اتصل بعلي مفاونا كتابكما الذي صدحت على افنان البلاغة سواجعه وصدبت في موارد المحبة الصديقية مناهله ومشارعه ولطفت في كل معنى من المعاني افانيته ومنازعه وتالفت على الاجادة في كل مقصد من المقاصد مواصلة العذبة ومقاطعه وابنمت بازهار العناية الربانية اباطحه الفيح واجارعه .. »

كانت بعض الالتاب والتسرب من المشرق فتشير نقدا لاذعا لدى علماء المغرب مما حدا ابن الحاج الفاسي الى القول : « يتعين على العالم ان يتحفظ من هذه البدعة التي عمت بها البلوى وقل ان يسلم منها كبير او صغير وحد ما اصطلموا عليه من تسميتهم بهذه الاسماء القريبة العهد بالحدوث التي لم تكن لاحد ممن مضى بل هي مخالفة للشرع الشريف وهي فلان الدين والعالم اولى من يتحفظ على نفسه من هذه الاشياء ويدب من السنة في حق نفسه وفي حق غيره .. »

ومن نتائج النقد اللغوي ما كتبه الاجدائي حول التوشيح والوشاحين معلقا على بيت ابن الرقاق المغربي :

على عاتقي من ساعديها حمائل

وفي خصرها من ساعدي وشاح

حيث استعمل هذا الوشاح في معنى النطاق وهو ما تديره المرأة على خصرها والوشاح ما تتقلده على عاتقها فيكون منها في موضع حمائل السيف من الرجل وقد خطيء ابو تمام في قوله :

من الهيف لو ان الخلائل صورت

لها وشحا جالت عليه الخلائل

لانه استعمل الوشاح في الحجاب وانما وصفوا الوشاح بالقلق والحركة لان ذلك يدل على رقة الخصر وضмор البطن ..

وقد ظل اقطاب الفكر ينتجعون الشرق لاستتمام المعارف وببادل الاجازات كما كان المشاركة يتوقون الى مبادلة علمائنا وجوه النظر وقد عرف الشرق كيف يقدر المغرب في شخص افذاذه امثال ابن سليمان الروداني والمقري وابن الطيب الشرفي ويحيى الشاوي واليوسي واحمد بن ناصر واحمد القادري ومحمد (لتحا) الفاسي ومحمد بن

الطيب العلمي المتوفى بالقاهرة واحمد بن الخياط الذي مكث طويلا في القاهرة ايضا واحمد الهلالي الذي ترك لنا وصفا شيقا لرحلته العلمية هذه . لان اساليب الشرق والغرب كانت تتكامل كما ان عناصرها الحيوية يتم بعضها بعضا في هيكل موحد رصين . ولعل ما لاحظته المقري وقبله ابن خلدون من فروق بين الشرق والغرب في الاتجاهات الفكرية والمناهج العقلية قد ظل على ما كان عليه اذ بينما كان الشرق مطبوعا بالعمق في ملكة العلوم النظرية طفق المغرب يوغل في البحث اللغوي مع تحقيق ما احتوت عليه بواطن الابواب وتصبح الروايات وبيان وجوه الاحتمالات والتنبيه على ما في الكلام من اضطراب الجواب واختلاف المقالات مع ما انضاف الى ذلك من تتبع الآثار وبينما غلب على تأليف المشاركة الإيجاز (عدا البعض كالفزالي والفخر الرازي) مع انحصار في الموضوع سواء في التصنيف ام التدريس اذا بالمغاربة من القيروان الى القرويين يوغلون في الاستطراد . واذا كانت صناعة التأليف قد انتهت في علماء المغرب على صناعة اهل المشرق في شخص ابن ابناء المراكشي فقد عللوا ذلك (ببراءة نسبه من البداوة) غير ان الامر لم يبلغ الحد الذي زعمه ابن خلدون في المائة الثامنة من انقطاع ملكة التعليم على طريق النظر لان التحقيق العلمي ظل طابع الكثير من علماء مهاد الشرفاء هذا مع تحفظات منها نوع من التجمد في المنهج وايغال في استظهار النصوص حيث ادى الحال في بعض نواحي المغرب كسوس الى تطرف في الاستظهار تجاوز التون الى معجم اللغة ولكن هذا الاسلوب الذي كان يحجر الفكر احيانا عند من لا يستطيع ان ينسج بين واهيته وملكته التصورية قد ضخم على المكس عند البعض السليقة العربية ولا ادل على ذلك من وفرة اعداد الادباء والشعراء في سوس حيث لا يزال التحقيق اللغوي خاصة بارزة ولا يعزب عنا ان ابن القزاز البربري هو الذي صحت عليه اللغة بالاندلس بعد ابي علي البغدادي وان اهل شنقيط اقرب الى الفصحى من باقي عناصر الشعوب العربية بفضل تلك الروح الاستظهارية البسيطة .

واذا اردنا ان ندرك نوع المعارف التي كانت سائدة في ذلك العصر والتي احتكرت نشاط رجال الفكر فما علينا الا ان نستعرض زمرة ممن شملهم المهدان الغربيان امثال البوسميدي والافلاسي والتمنارتي ومبارة والمرغيشي واليوسي والعباشي

وآل الفاسي والفساني والحلي وابن زاكور وأحمد ابن ناصر وغيرهم يستتبع لنا خطوط ذلك الاطار الذي انحصر فيه النشاط الفكري .

فمن عالم يكدر في خمول موزعها يومه بين التدريس والعبادة الى مصنف لا يعدو شرح النصوص الفقهية او جمع تراجم الصوفية او وضع لوائح مطولة من شيوخه واجازاته الى فقيه انصرف للقضاء او الفتيا فاحتكره حديث النوازل والافضية والخصام والشجار .

ولكنك تجد ازاء هذا النزوع الفقهي والوجعة الصوفية اتجاهات من نوع جديد تضيئ على المجتمع الفكري الوانا طريفة فانك تلمس في هذه الفترة على دواوين شعرية وتحريرات تاريخية الى جانب كتابات في الحساب والفلك والطب فهذا عبد الرحمن التنازلي يتولى الفتيا والقضاء ويقرض الشعر العالي ويؤرخ لسوس العالة في فهرسته القيمة وهذا المرغشي يدلي دلوه في كثير من شعب المعرفة بعد ان اقام في زاوية الدلاء محفل الاداب والعلوم فيكتب في الرياضيات والهيئة ويجمع معلومات شيقة من مجتمع عصره مازجا ذلك بفوائد مختلفة تتراوح بين التنزلات الروحانية والوصفات الطبية والشوارد الادبية وقد استقى الافراني مادة تاريخ المجتمع السعدي من امثال هذه المصنفات ، وهناك نوع آخر من التصانيف يتجلى في (الدر الثمين) لمبارة حيث نجد الى جانب الديول الفقهية والتعاليق الصوفية طرائف من الحركة الفكرية المعاصرة وبرحنة المياشي يظهر اسلوب جديد في البحث يحاول ان يتجاوز النطاق المغربي المحدود الى ذلك الفضاء الواسع الذي يمتد الى الشرق الادنى حيث المناهج الدراسية تختلف نوعا ما عنها في المغرب وحيث طرائق التصنيف ومواضيع التأليف تتسم بميزات من طراز جديد فنرى المياشي يحاول ان يدرس خصائص الشرق ليقارنها بالحالة المغربية مخللا ذلك بنظرات تاريخية وتلويحات صوفية واستطرادات ادبية فهو يحدثنا من شراب البن في الشرق مشجرا الى انعدامه اذ ذاك بالمغرب كما يصف لنا يوم الحمل بمصر ثم لا يلبث ان ينتقل الى الطريقة ومناكر المواسم معرجا على جزئيات كتطويل اللحية وحكمها وعدد العوالم ثم يدرج فوائد طريقة كاستيناس المصريات المترفات بشراء ربال من الازهار كل يوم ولا شك ان شيوخ هذا النوع من التأليف في الوسط المغربي يحدث السره السريع .

وقد افرق العلماء في التصنيف حتى بلغت تأليف بعضهم المائة والسبعين وهذه الوفرة من ابرز مميزات العهد العلوي يضاف اليها التنوع حيث تجد الرجل الواحد يؤلف في الطب والهيئة والفقه والتاريخ والتراجم والاداب ولكن اذا كانت بعض المصنفات موروثة صادقة لذلك العصر كمحاضرات اليوسي فان الكثير يمتاز بموضوعية متطرفة لا تترك مجالا لانبثاق ذاتية المؤلف مما يفقدها الروح والتمتعة فالمحاضرات تصور لك الحركة بكيفية تثير في النفس حب التطلع وروح الانسباق مع المؤلف حتى ليخيل للقاريء انه يمشي في ذلك العصر وهل هناك لوحة تاريخية تبلغ من تلك الصور المتتالية التي يرسمها اليوسي فيشخص فيها الادباء في مساجلاتهم والصوفية في حضراتهم والمبشرين في دعاويهم والعوام في خرافاتهم وتشبه الرحلة البوسية رحلة احمد ابن ناصر من حيث الاغاضة في الحديث عن الشرق .

ثم ينبثق القرن الثاني عشر فيتسع نطاق النشاط الفكري ويتضخم التنوع فيظهر امثال الرياني والوزير الفساني والشريف العلمي .

فالرياني مؤرخ دقيق الملاحظة يخطو باسلوب البحث والتحقيق خطوات ويوسع موضوعه ليكشف عن الحياة في جزء من القارة الاوربية وينطبع اسلوبه التاريخي بمنزعة جديدة لانه يحاول مزج وصف الاحداث بنظرات عن نظام الحكم والحالة الفكرية . اما رحلة الفساني الى اسبانيا فانها وثيقة عرفت ادباء المغرب اذذاك باساليب الحياة في بلدان مسيحية ووصفت المجتمعات الاوربية وحياة البلاطات والطبقات الارستقراطية الاسبانية ، وتجد الشريف العلمي يفرد ادباء وشعراء بتأليف خاص فيشجبهه بالتصنيف اتجاها فنيا يهدف الى النقد والتحليل والتنظير من خلال محاورات اجراها مع اثني عشر من معاصريه كالحلي وابن زاكور ومسمود المريني والفرزال والبومصامي غير ان هذا (الانيس المطرب) جاء رغم ذلك موسوما بالطابع العام الذي كان يصطبغ به التصنيف في القرن الثاني عشر وهو الانتشار وعدم التزام الموضوع وقد شبهه بعضهم من هذه الناحية بقلائد العقبان للفتح بن خاقان او المنتقى المقصور لابن القاضي . فنحن نجد الى جانب هذا البيت الذي هو من نظم المؤلف نفسه يخاطب به المولى اسماعيل :

امولاي امنست البلاد واهلها
فله رب الناس ثم لك الشكر

قصيدة للحلي مظلما :

يا رب اني ضعيف هالتي الوجع
ما حيلني يوم هول المرض ما العمل
واخرى لابن زاكور (وحيد البلاغة وفريد
الصياغة) صدرها بقوله :

اتق الله ما استطعت فان

الله ربي مع الدين اتقوه

هذا مع ان للحلي مقامات عارض بها الحريري
ولابن زاكور (عنوان النفاسة في شرح الحماسة)
و (مقياس الفوائد في شرح ما خفي من القلائد)
والصنيع البديع وشرح المقصور والمدود وشرح
لامية العرب والمرب المبين وغير ذلك .

وهذه النزعة الصوفية نجدها عند معظم شعراء
هذا العصر فالشاعر مسعود المريني (واضع المدينة
المرتدى بالوقار والسكينة) الذي له تأليف في
المتصوف وقصائد عارض بها ابن الوفا وطاول ابن
الفارض يقول في مطلع قصيدته :

يا رب انك موجدي ومكوني

ومدبري ومصوري ومشكلي

وفي اخرى :

سهام الموت راشقة النبال

ونحن مع البطالة لا نبالي

ولكنه يقول ايضا :

طيف الخيال تعرضا

اخذ المقام واعرضا

واثار وجدا كان في

طي الاضالع اجهضا

ويقول في رسالة التزم فيها السنين محتليا
بابن الخطيب :

سلام كنيسة مسك سرت

لانفاسكم بنسيم سحر

لساحتكم ساقه مستهام

سباه سنا حسنكم وسحر

ومن شعراء العصر ايضا محمد بن العربي
الشرقي (شاعر الاوان الذي لم يشتمل على مثله
ديوان) القائل في حقيقة الشاعر : (ان اسم الشاعر

لا يطلق الا على من وقف في حرم المعاني بكل المشاعر
اما من سلك طريقة واحدة فآراؤه فاسدة وبنائه على
غير قاعدة) ولعل هذا التعريف صورة لذلك العصر
الذي كان شعراؤه يستوحون من ارواحهم المضطلة
باوار التقوى وفي ذلك الحوار الذي دار بين هؤلاء
الشعراء وبين الشريف الطلمي الوان شتى وضروب
مختلفة للاداب والفنون التي كانت رائجة في ذلك
العصر .

وبعدما يذكر الطلمي شعراء معاصرين آخرين
امثال احمد عمور نراه يمرج على كتاب العصر كالمهدي
الغزال القائل في وصف راقصة :

قامت بكأس الروم راقصة

بين الفواني رقصها بطرب

كانها والكاس في يدها

بدر تبدى حوله كوكب

وفي وصف بستان :

انظر الى الروض وقد نثرت

عليه اوراق من الياسمين

يحكي بساطا ناعما صيغ من

لبرجد يعلوه در لمبين

ولكنه يقول ايضا متأثرا بنزعة العصر :

الموت لا شسك آت

وكل آت قريب

فتب وتب قبل ان

يعتريك منه وثوب

ومنهم عمر الحراق القائل في ديوانه بفاخر
بمسقط رأسه شفشاون :

ما شغب بوان ما مرج دمشق وما

نيل بمصر وما العاصي لدا حلب

في جنب شفشاون الغراء ان فخرت

بتينها وبزيتون وبالمنجب

ومنهم احمد دادوس (صاحب التماريض في
الضروب والاعاريض) الذي رثى وغزل وجد ما شاء
وهزل (والاديب البوعصامي (بليغ مصره وامام
الادباء في مغربه ومصره رحل الى المشرق، وطلع عليه
كالبدر المشرق) القائل :

محي بدمع كالعقيق محاجري
شوقا لطيفة والعقيق وحاجري

ولهذا الشاعر باع طويل في ترتيب النغمات
الثمان التي عليها مدار الفناء والالحان.

ومنهم ايضا الشاعر عبد القادر بن شقرون
القاتل :

استقباني كؤوس بنت الدوالي
ان مراني السقام لهي الدوالي
الى ان قال :

كم ليال قطعتها في نعيم
حفظ الله عهدك الليالي

بين راح وشمعة ومفن
وظباء قنصتها باحتيال
ولكنه ينفل (لثرة العصر) فيقول :

رب بسر لمبدك الفتح واشرح
صدر من صدره من العلم خال
ومنهم الكاتب محمد بن سليمان (شاعر
مطبوع .. واديب همام) القاتل :

عديري من هوى غصن رطيب
اراني البدر من فوق القضيبي

مليح فاتر الاحاظ طفل
صبوت لحسنه بمد المشيب

ومنهم الحاج علي مندوصة الذي كلامه (يفار
منه امرؤ النيس ويحن اليه جميل بثينة وقيس)
القاتل :

الى كم فدتك النفس ترمي فؤادنا
بهم نفي اللحظ ازياقه هذب

الى ان قال :

فدونكم ربات قرط خريدة
مغوفة هيفاء هام بها الحب

مبرقعة لمياء غضة بضة
سوى انها عذراء ناهدة مرب

ومنهم محمد بن يعقوب (صاحب الابيات السهلة
العبارة اللطيفة الاشارة) ومن تلك النماذج تدرك
ان شعراء العصر العلوي الاول مراتب فهم بين فحل

(يتصرف في فنون الكلام كثير الاغراب لا يعلم له
مراد ولا يفهم من ابيانه الا افراد) .

وهناك شعراء وكتاب آخرون لم يذكرهم
الشريف العلمي في انيسه امثال عبد الواحد
البوهثاني مفتي فاس الذي هنا المولى اسماعيل على
تحرير العرائش بقوله :

الا ابشر بهذا الفتح نور
قد انتظمت بعزكم الامور
وقد وصف اشترلياب ائناق المدن المختلفة الى
التحرر على يد السلطان فقال :

وهو ان تنادي كل يسوم
متى ياتي الامام متى يزور
وقال قبله :

اذا ما جاء سبتة في مشي
تناديه اذا كان البكور
ومنهم عبد السلام بن حمدون جوس القاتل :

رفعت منازل سبتة اقوالها
تشكو اليكم بالذي قد هالها
مع بادس وبريجة فتعطفوا
وتنبهوا كي تسموا تسالها

فلقد قضيت للعرائش حاجة
مع طنجة فاقضوا الذي آمالها
وارفع لهذا الغرب راسا انه
في الضعف ما دام المدا انزالها
وقال عبد السلام القادوي :

علا عرش دين الله كل العرائش
وهذ بنصر الله قصر العرائش
تلك الوان خاصة من الشمر الوطني الذي
يحاول فيه الشاعر التعبير عن آلام الشعب وآماله .
وعندما قام المشايخ ابو حفص لوقاش يدمسي
الملك قائلا :

انا عمر الموصوف بالباس والندى
انا عمر المذكور في ورد الجفر
اجابه ابن بجة الريفي بقصيدة منها :

في صفحة الدهر قد خطت لنا عبر
منها ادماء الحمار انه بشر

وهذا لمعري ابداع في فن الاقتداع .

والشيخ رايتنه
بفعل ما لا ينبغي

قلت له انت بسري
قال بلى انا بسري

ويمكن القول بان تلك الهبة الادبية الرائعة
التي همت بلاد سوس في العهد العلوي حتى تفتحت
القرايح من بعض ما انتجه الفكر المغربي - انما يرجع
فضلها للحركة الناصرية التي نشرت العلوم والفنون
الى تخوم الصحراء .

وهذه المجالة تضيق من استعراض النماذج
المختلفة للحياة العقلية في العصر العلوي ولعل في
كتاب (نشر الثاني لاهل القرن الحادي عشر والثاني)
لمحمد القادري مادة وافية لمن اراد ان يقف على الوان
الحركة الفكرية بالمغرب خلال قرنين .

وقد ضرب الملوك الادباء بسهم وان في هذه
الحركة لحفظ السلطان محمد بن عبد الله الاغانى
للاصفهاني مع صحاح الحديث وامهات الكتب تركيزا
للملكة العلمية وكان في ذلك بحث جديد للغة العربية
واصولها وآدابها وفي هذا العصر ظهر محمد بن
الطيب الفاسي استاذ الشيخ مرتضى الزبيدي
المصري الذي الف اكبر موسوعة لغوية في العصر
الحديث هي تاج المرووس في شرح القاموس
للفيروز اباذي (6) والذي كان يصحح من املاءاته
مما جم اللغة كما فعل ابن القزاز البربري في المعصور
الاولى .

اما القرن الثالث عشر فانه لا يكاد يختلف في
مجموعه عن سابقه فقد امتدت الى اوائله حياة
رجلين هما محمد التاودي ومحمد المنالي الزبيدي
الذان مات كلاهما عام 1209 وكانا انموذجا جديدا
لعلماء يحرمون على انتاج الشرق للتبحر في علوم لم
تكن منتشرة في المغرب الا عند الخواص وقد كان
العالمان رسولين من المغرب الى الشرق في هذه الفترة
للاقتباس من الفكر العربي هناك وخاصة في القاهرة
حيث تبلورت معطيات الحضارة الاسلامية في
الازهر الشريف ومن نبغ في هذا القرن من رجال
الفكر ابن عجيبة الذي تحتوي فهرسته على معلومات

وفي هذا العصر كانت زاوية شرقاوة في ناحية
تادلا محفلا للاداب والفنون وقد خلفت زاوية الدلاء
فشملت بعطفها كثيرا من الادباء الذين وجدوا في
ربيعا المقام الرحب كالافرائسي الذي بدأ حياته
التصنيفية بشرح بديع لتوشيح ابن سهل الاندلسي
وهو نموذج للنثر (الفني) في ذلك العصر اما الزاوية
الناصرية فقد احتفظت باشعاعها في الجنوب وفي
(الدرر المرصعة) لمحمد المكي الدرعي صور ناصعة
لائار هذه الزاوية في العلم والاداب والكتاب ينطوي
على معلومات ادبية قيمة وقصائد رائعة منها مقطوعات
كلها تفجع على اهل الدلاء تقول العربي الفاسي:

ادار بذات السدر في الجانب الشرقي
سقال الحيا ما دام صوب الحيا يستقي

اما درعة فقد قيل فيها بين ما قيل :

الم بدرعة واختر للنزول بها
زاوية الفضل ماوى المجد والكرم

وهناك مقطوعات منها للهاشمي الشكلمطي
الرباطي :

يا حاديا اسرع بذات الزمام
وارع رعاك الله حق اللامام

فانني امسيت ذا قلق
من شدة الشوق وفرط الغرام

وقال :

ورشا من آل يافث
لحظه بالحر نافت

يخطا السين الى لاء
المثاني والمثالث

قلت جدلى بوصال
قال دع منك الوثاوث

وتذكرني هذه الايات بالبيتين الذين ساقهما
الجاحظ في البيان والتبيين :

(6) قال الزبيدي في شيخه هذا: ورايت شرح شيخنا الامام اللغوي ابي عبد الله محمد بن الطيب بن محمد
الفاسي المتولد بفاس سنة 1110 والمتوفى بالمدينة المنورة سنة 1170 وهو عمدتي في
هذا الفن والمقلد جيدي بحلى تقريره المستحسن (التاج - المطبعة الخيرية - مصر 1306 هـ ص 3)

حول الحالة الفكرية في تطوان وسليمان الحوات
الذي جمع في البدور الضاوية اجازات الدلائل
ومراسلاتهم ومقتطفات من اشعارهم والشيخ حمدون
ابن الحاج الذي ترك لنا ديوانا حافلا بمدائح المولى
سليمان الذي حركت مآثره المشاعر حتى قال محمد
ابن ادريس الفاسي :

سليمان قد سلمنا وشرنا
فالملى منزل له والملاء
كفه كفت الفساد وكفت
كل عاد فما لكم اكفاء

وبلغ صدى الفاخر السليمانية تونس الشقيقة
فتمركت شاعرية فعلها الهمام ابراهيم الرياحي
الذي نظم قصيدته الخريدة التي مطلعها :

ان عز من خير الانام مزار
فلنا بضرورة نجله استبشار

ومنها :

هذا الذي رد الخلافة لفة
وسما به للمسلمين مناد

ومن شعر ابن ادريس يستنفر الشعب لحرب اسلى
مشيرا الى زحف الطليبة من الشرق ضد الاسلام :

يا اهل مغربنا حق النفيير لكم
الى الجهاد فما في الحق من غلط

فالشرك من جنبات الشرق جاورك
من بعد ما سام اهل الدين بالشطط

فوانح المكر تبدو من خواصه
فعمده المكر والكروه في نمط

من جاور الشر لا يعدم بوائقه
كيف الحياة مع الحيات في سبط

وقد تمزج النشر بالمطبعة الحجرية التي استست
بفاس في منتصف القرن الماضي فصدرت عشرات
المصنفات القيمة التي زخرت بها مكاتب المخطوطات.
وقد اتصل جبل الادب على الطريقة التقليدية في
النصف الاول لهذا القرن كما تواصلت حلقات
التصنيف في نطاق محدود على فراد القرون السالفة
مع اقبال في الاقتصاد على الجمع والتنسيق بكيفية
تجرد عالم التأليف من كل روح .

ومن الصعب التمييز استنادا الى منهجية التعبير
وحده بين مصنفات يتأرجح تاريخ انبثاقها بين
قرون ذلك ان اسلوب الادباء واللغويين ظل في
كلاسيكته المتحجرة في منأى من الاهتزاز للكثير من
النبرات الجديدة المتفاعلة مع لوازم البعث الحضاري
المتجدد واذا كانت اللغة كائنا حيا يتدرج في مراحل
النمو بين الطفولة والهرم لم الانبعاث في طفرات
جديدة فان اللغة العربية بالمغرب الاقصى خاصة قد
احتفظت بطابع اصيل خلال خضم الاحداث
السياسية والحضارية واذا كان هنالك عامل منطقي
لتعليل هذا التحجر فهو ان الكثير من ادبائنا ولغويينا
ظلوا عالقين بابرار عاجية في حين ان لهجة التخاطب
كانت قد درجت في المجاري العبة الفياضة
وبذلك اتسعت الهوة بين الفصحى والعامية بشرب
الدخيل الاجنبي وقد تجلت روح التجديد عند ادباء
او في مراسيم ومراسلات رسمية فظهرت بدلا من
مصطلحات معربة في قالب رصين الفاظ عامية على
حساب اللغة الاصيل الفاظ عامية تكثر وتقل تبعا
للحاجة الملحة في ضبط الوقائع وتدقيق المعاجريات
وان كانت خطابات ووثائق سياسية اخرى احتفظت
باسلوبها الكلاسيكي الرنان على حساب الدقة
والوضوح .

اما في صحراء شنقيط فقد نشر الشيخ احمد
ابن الامين الشنقيطي نزيل القاهرة مصنفه القيم
« الوسيط في تراجم ادباء شنقيط » منذ عام
1329 هـ - 1911 م في الوقت الذي انبثقت الثورة
من اقصى الجنوب برعاية ما والعينين لتحرير المغرب
من الزحف الصليبي فاتحفنا بصور رائعة من فنون
من الشعر الرفيع ابدعته قرائع الصحراويين المغاربة
في قلب الفيافي القاحلة مجددين بذلك عهد الجاهلية
الاولى في نصاعة الاسلوب وجزالة اللفظ ورقة المعنى
وفخامة المبنى وكانت ضروب القول لا تتعدى الاطار
التقليدي من مفاخرة ومهاجاة ومديح وغزل
وتشبيب وقد برز عشرات من الشعراء والناشريين
خلدوا اللغة في اصالتها وروعيتها الاولى .

فمن شعر ابد محمد بن محمود يصف مرافق
الصحراء :

حملنا الغيام وانفادها
وسرنا جيمعا تقسالا بطا

نجر العجاف رويدا لثلا
تخب فتبهر او تثلططا

ومن الأرجال العامة التي أصبحت تسير
مسرى الأمثال عند الجماهير قصائد « الملحون »
للغني الشاعر الهادي بن محمد (المتوفى عام
1319 هـ) .

مدمن مبلال

محدود الفمبال

افكل اسوال

اسر من حنش (7)

ومنها يدم قبيلة بأسلوب عربي لاذع :

ما لم المتفجير

وبلا خيم اكبير (8)

اما الصحافة فقد ظهرت في المغرب منذ أزيد
من مائة وأربعين سنة ولكن بغلات اجنبية خاصة في
سنة وطنية الى عام 1868 حيث برزت جريدة
اسبوعية بثلاث لغات (العربية والفرنسية والاسبانية)
تحلل أحداث العالم وماجريات المغرب ، وفي عام
1889 صدرت أول جريدة عربية اسمها « المغرب »
وتنافست المفوضيات الأجنبية فصارت كل واحدة
منها تصدر صحيفة باللغتين الأصلية والعربية لمهاجمة
الحكومة المغربية تمهيدا للحماية .

ولم تكن تصل اليها آنذاك سوى جريدة
« الاهرام » المصرية التي كان المغاربة يتهاافتون على
قراءة الامداد القليلة الواردة منها ثم توالى الصحف
العربية في اوائل القرن العشرين فظهرت « الفجر »
و « لسان المغرب » و « السعادة » . وانصرف الفكر
المغربي طوال ثلاثين سنة لتعزيز المقاومة المسلحة فلم
تظهر أول دورية وطنية الا عام 1932 وهي مجلة
« مغرب » التي ما لبثت ان تمررت بصحف أخرى مثل
مجلتي (السلام) (والمغرب الجديد) وجريد (الحياة) تعضدها في
المساجد محاضرات تكونت في حلقاتها نخبة واعية

شكلت الاطر الوطنية الأولى للخلايا التي انبثت في
البلاد تركز لغة القرآن وتقرأ بتهلف ما يتسرب خفية
الى المغرب ضمن الحركة الشرقية للتأليف والنشر
من الصحف والمجلات (9) وبدأت روح جديدة تنفتح
في أسلوب حماسي رائع يستمد أواره من النهضة
القومية بالجنح الشرقي للعروبة وخاصة بمصر
والشام فظهر شعراء لمع نجمهم وبدأ الشعر يعنى
بالقضايا الاجتماعية والسياسية في الوطن العربي
ويتخلص تدريجيا من وطأة المفاهيم الكلاسيكية حول
الغزل والتشبيب والمدح والهجاء متفتحا لمعطيات
طريفة أكثر صلة بمتطلبات العصر ومتطلبات
التطور ومع ذلك فان هذه الفترة لم تكن خالية من
تخضم كمرحلة انتقال بين عهد برز فيه جبل ما
قبل الحماية وجبل التوثب الجديد الذي اشاد به
الاستاذ علال الفاسي في مخطوط حياة « وادي
الجواهر » فمنهم محمد غريب صاحب « فواصل
الجمان » حيث ترجم لأزيد من ثلاثين من « وزراء
وكتاب الزمان » كان ينظر الى قيمتهم الادبية بمقياس
جديد فقد تحدث عن اديب « استكتب في وزارة
الخارجية الى ان شالت نعمته ووسدت في التراب
هامته في عام نيف وعشرة وثلاثمائة والف » ثم حاول
تعريف قطاع وزاري جديد في أسلوب قانوني يتم من
اهتمامات العصر في الحقلين الدبلوماسي والسياسي
حيث قال : « وزارة الخارجية عبارة من الاستقلال
بمباشرة دعاوي اهل الحماية وتنفيذ ما تعلق بها من
عزل او ولاية والوساطة بين السلطان وبين سفراء
الدول وكبرائها وكتابة الرسائل للوكها ووزرائها » .
ومن نظمه الرائع نشيد مدرسي نحا فيه منحى
طريفا بين التوشيح والتخميس في « مان جديدة » .

قال :

يا بني الدهر اجيبوا

دامي النصح النير

(7) مد اي ماذا وعلال من العل يعني الذي يحلب نوق الناس بعد ان تذهب للري من عند اهلها وهو
مندهم وصف في غاية الدم ومعدود أفلمبال اي معدود في المال اي حالة على الناس والانوال
بيوت من الشعر واسر من حنش اي أكثر من الحنش سري .

(8) فم اي أصله ثم وهي لغة والتفجير التخليق كالتعمد اي التشبه بمعد بن عدنان) بأخلاق بني
مفغر ومفغر قبيلة بناحية فاس والخيم هو حسن السجية وهو الخلق كما عند ابن
سيده في الحكم (فارسي مغرب) ومعنى البيت ان هؤلاء القوم مجرّدون من كل الاخلاق
المفغرية ومن السجاياء الحسنة .

(9) وأهمها مجلة « المنار » للشيخ رشيد رضى التي كانت قليلة حتى اضطر بعض رجال الفكر من المغرب
الى التوجه للجزائر للاطلاع عليها .

واستجدوا ذكر قطر
كان ذا صيت شهير
جددوا للفرج مجدا
واركبوا كذا وجدا
واقدموا للعلم زندا
والبسوا للحرم بردا
وابتضوا هديا ورشدا
تسموا شكرا وحيدا
وتسروا رعبا جميلا
من ذوي القدر الخطير

ومنهم احمد البلغيثي الذي يعتبر انموذجا
للعالم المبرز وللغتيه الفليح والمفني البارع الذي
يحقق قضايا القانون في مصطلح دقيق يستجلي بواطن
المفضل الى جانب شاعرية فياضة جمعت بين الصفاء
والجزالة . ومن نظمه :

بدت لي ترنو بالعيون الفوائر
ولكن لها في القلب وقع البوائر
بدت لي وفي قلبي المعنى بحبا
لواصح اشواق كحمر الهواجر

اما عبد الله الفاسي نائب السلطان مولاي
حفيظ بطنجة وسيره بباريس فهو خطيب واعظ
وناقد قانوني ، ومن شعره :

ليس التمدن ما يلهيك من عمل
يرقي البلاد ويعلي الفكر والنظرا
ليس التمدن في عيب الدين مغوا
بل التمدن في اجلال من فبرا

وقال في قصيدة اخرى يصف بعض ما ظهر
آنذاك من طائرات وسيارات وقطارات وبواخر
وغواصات :

هذي المناطد فوق الجو تنشدا
هذي المآثر والآثار في الدول

هذي المراكب تطوي الارض تتحفنا
قرب المزار ويمن السير والنقل

هذا القطار يخد الارض منتظبا
متن البسيطة في سهل وفي جبل

هذي البواخر في همق البحار وفي
اعلاه تفعل فعل الفارس البطل
هذا التمدن هذا الفضل فامن به
ليس التمدن بالالمان وانفزل
ومن بين من برز من الشعراء في هذه الفترة :

محمد السليمان الذي تمخضت رحلته الى
الشرق العربي الناهض من ثورة في احساسه
ومنهجيته ومن نفاثاته التي يواكب فيها شاعر
الكثانة حافظ ابراهيم قوله :

ولست الى النسيب اهش كلا
فان وراءه لمع السراب
ولا وصف الجالس يرددهني
ولا جس المثاني والرياب
اليت امتي فقدت حباها
وهذا عزها وشك الذهب
وهذا صبحها يحكي مساء
فراحتها توارت بالحجاب

وقد وصف في دقة وروعة جانبها من المآسي
الاجتماعية والاقتصادية التي توالى على المغرب
المحتل مشيرا الى تكة العريضة وتقلص ظلها
وسياسة التفتير والتجهيل التي نهجها الاستعمار :

رضينا الي حنى لا نصيح
اذا ما قال سررك في الجواب

ولا احد من اهل العلم منا
يقيم لسانه عند الخطاب

مصانعا الم بها فساد
فاصبحت الصنائع في اضطراب

وساد على تجارتنا كساد
فراش المال منخرم الحساب

وزاحم في فلاحتنا اناس
جنوا من ريعها عجب العجاب

ونحن ازاءهم فقراء نلقي
بانفسنا باحضان المرابي (10)

(10) راجع «الادب العربي في المغرب الاقصى» لصديقنا الاستاذ محمد بن العباس القباج

وقد كانت الدعوة الى التجديد في نطاق الروح
الاسلامية هي شعار مصر يتردد في كل قصيد
فمن ذلك ما قاله السليمانى :

فكل زمان له حلة

فالق دلاءك بين الكرام

ومبد الله الفاسي :

والبس لكل زمان حل حله

فالشهم من يعرف الادوار والمصرا

وقد اتجه القريض خاصة لوصف مظاهر
حضارية مستحدثة كمنظرة الشاعر محمد يوعشرين
بين الكهرباء والماء حيث يقول :

قد سبج الماء في انبويه سحرا

فقطب الضوء كالزور من غضب

الكهرباء اراها قوة جبلت

على الحرائق والاسراف والمطب

ضوء الزيت وضوء الشمع قد محيا

من آية الليل اذ اشرفت من حجبي

الى ان شبه هذه المناظرة الطويلة برواية شخمت
ادوارها في اسلوب جذاب واستعمل فيها تعابير
طريفة حيث قال :

تلك الرواية من تعبير نادرة

تشخيص ادوارها من ابداع الخطب

وقد ردد المغرب في تلهف وحنان اصداه
الشرق الثنائي الذي حالت دونه حجب وموانع
مترسما خطاه في كل شاد وفاذ فقد مبر محمد
ابن اليماني الناصري من حرقة الابداء في فجيئتهم
بالمفلوطي حيث قال مشيرا الى فن الفقيده والسوان
بديمه :

ما للمعارف ترسل «النظرات»

نحو الثرى وتسلسل «المبرات»

فالمغرب الاقصى يمزى مصر في

ذاك الابسي مذلل العقبات

يا مصطفى وليت هنا لابسا

حلل الشفاء موفق الخطوات

قد كنت فينا مرشدا ومهدبا
ومشلبا بالخير خير نبات

وطفر المغرب طفرته الرائعة بروامة الاستاذ علال
الفاسي ورفاقه الاحرار عام 1933 عند مطالبة الشعب
بتخليد الذكرى السنوية للعرش المغربي كمعنوان
للوطنية الصادقة التي اظهرها جلاله المرحوم محمد
الخامس وقدمت الكتلة الوطنية في العالم التالي
برنامجا مركزا للاصلاح برهن بالاضافة الى روحه
التحررية من الخطوة الجريئة التي قطعتها الفئة
العربية في فترة وجيزة اصبحت خلالها قالبا حيا
لمفاهيم جديدة ومصطلحات طريفة ردها الشعب في
شعاراته مثل الغاء الحكم المباشر وفصل السلطة
وتشكيل مجالس وطنية منتخبة وقرار الحريات
العامة وحق الاضراب وتوحيد التعليم وضمان الملك
المائلي وتوسيع القرض الفلاحي ومحاربة سياسة
الادماج وتكوين الاحزاب وفتح المجال للبعثات العلمية
الى الشرق العربي وحماية الصناعة الوطنية وضمان
السكن الصالح للجميع وتمززت هذه المطالب بحركة
« تضامن » بين تونس والجزائر والمغرب وانعقدت
«مائدة مستديرة» بين الكتلة الوطنية وادارة الحماية
وصدرت صحف عربية جديدة ك « الاطلس » . فقطع
المغرب بفضل هذه الانتفاضات خلال نصف قرن ما لم
يقطعه في آحاد عريضة حيث تقاربت الاحاسيس
وتجاوبت العواطف بين الشعوب العربية واتحدت
مجالي التعبير بعربية حية تساوقت مصطلحاتها
وتجانست مفرداتها في الصحافة والاذاعة في مواسم
الشرق والمغرب العربيين وانبثقت الى جانب هذه
الثورة الفكرية نهضة علمية انمكنت صورها على
مجلات ودوريات مثل « رسالة المغرب » التي اصبح
هناؤها رمزا لمدرسة القاهرة الناهضة في شخص
« رسالة الحسن الزيات » ورفاقه من الاخصائيين
العرب الذين بذروا في روعنا الايمان بقضية العربية
كلغة للعلم والحضارة في العصر الحديث فكان
للمفاهيم الجديدة وتعابيرها الطريفة صدى عميق
في نفوس نخبة حية من المثقفين المغاربة ما بين
مزدوجي الثقافة وموحدتها . ولاعطاء صورة عن
« رسالة المغرب » التي تبلور فيها الانتاج الفكري
الرصين في المغرب قبل منتصف القرن الحالي
ناخذ العدد الاول (11) من السلسلة الاسبوعية

(11) ونلاحظ ايضا في هذا العدد فراها ابيض هو عبارة من جزء مقال قصته رقابة الحماية لانطوائه
على منصر لم يرقها وكثيرا ما كانت المجلات والصحف الوطنية تصدر بيضاء :

وتحت عنوان «رؤيا» قال الشاعر الاستاذ محمد
الحلوي :

اي دنيا انت يا دنيا الرؤى
يا ملاذ الروح يا نبع النبي ؟

سبحة من سبحات الروح فى
أفقك السحري عمر ذهبي

ونسيم مطر منكسب
منك فى قلب وجيع متمسك

نمة تخلق من «الامه
مبتريا مبدعا للعجب

فى مجاليك استقيت الفن من
نبعه الفياض صافي المشرب

وتلقى قلبي اللحن الذي
يتلقى مثله كل نبي

سال فى روعي شعاعا حالما
غاب فى قلبي وروى ادبي

ومن شعر الاستاذ عبد المجيد بن جلون خريج
« جامعة القاهرة » :

يا نديمي اسبق نديمك
زده نعمى وحبورا

زده صفوا وسرورا
وخبيلا وشمورا

يا نديمي اسبق نديمك
فملا الاكوان خمرا

يتدلح منها الشمور
ثم قل كون كبير

او فقل كون صغير
اوليس الكون سرا ؟

الليالي والمصور
فى محيط تتقلب

انها حتماء تصطب
والزمان الفظ يلهب

ظهرها وهي تدور
ومن شعر الاستاذ عبد الله ابراهيم رئيس

الحكومة سابقا :

سر كرمش الكهربا
الشته السنة القضاء

الجديدة (عام 1368-1949) حيث نستشف من عناوين
الابحاث والدراسات الوجهة الجديدة فى الادب
والثقافة فى المغرب الناهض فهناك دراسات حول
الانثية وممجزة الاسلام المعاصرة
وزهراء مجدولين او تنالع العوازل
والمبقية شذوذ والتشقيف الداني ورتاء شاعر مصر
علي الجارم وقصيدة للشاعر المرحوم عبد الكريم بن
ثابت الذي قضى شطرا من حياته فى مصر
« وجهك الباسم » وهي من بواكير الشعر المنشور
جاء فيها :

وجهك الباسم لي نعمى وروح وهناء
ورجاء لفؤادي كلما عز الرجاء

وشفاء لجراحاتي وسلوى وهزاء
ونعيم ذكرتي نفحة منه الخلود

حين كنا نجهل الدنيا والام الوجود
تملا الفرحة روحينا وبدي وتميد

وكلانا يا حبيبي مثل انفاس الصباح
مثل همس البحر النائم فى غود القمر

يتفنى بالاندية

ونقرا فى الفهرس العام لسنة 1950 فبفساء
من الدراسات يغطي مجرد عناوينها لمحة من اتجاه
المصطلح العربي فى المغرب منها : الشعور والانفعال
- مصامية الادب - صلاتنا الثقافية مع مصر - الفكر
الاجتماعي والفكر النقابي ورسالة الشعر وارادة
الشعوب وكياننا الروحي ودفاع عن اللغة العربية
والنزف الثقافي والعلم والشاعرية وثقافة هذا
الجيل ومركب الكمال وشرقية الحضارة المغربية
الخ ..

ونستشف من خلال نماذج شعرية اتجاه الفكر
المغربي الحديث ، وللاستاذ الكبير ملال الفاسي :

مضى الشطر من عمري وانى دالما
حليف هوى مفر وخذن اذى معدي

واطمح للروحي كبشيم جرحها
فتأبى سوى صدي وتأبى سوى ردي

واطلب عقلي منجدا فى كفاحها
ولكنها تظن على العقل فى الحد

تجادبني امواها وتمد لي
ظلالا من الالوان لامعة المد

نبراته وقراقه
مثل الزلال بلا وتر
وجداول فواره
يطفو بصفتها الزهر
والورد بلبل غده
قطرات ابداء الحر
في مثل حبات الجليد البيض
او سقط الصدر

تلك نماذج من نتاج الفكر المغربي في مختلف
المصور وخاصة في الحقبة الحديثة تعطينا صورة من
تطور الفكر في الوانه الطريفة وانعكاساته التي تشرق
وتخفت على التعبير اللغوي الذي واكب رغم تناسلي
الديار تطور الفكر العربي ضمن الوحدة الكبرى .

المؤثرات الدينية

كان تعليم القراءان والفقهاء هو الانطلاقة الاولى
لتعريب الجهاز الديني في المغرب الأقصى حيث اناط
طارق بن زياد بسبعة ومشرين من العرب رسالة
تلقين مباديء الشريعة الاسلامية الى الجيش البربري
ثم عمر بن عبد العزيز على رأس المائة الثانية وما
لبثت الدعوة ان تقلصت بسبب الاضطرابات
السياسية بين الامويين والعباسيين فظهرت في
الميدان فرق الخوارج التي نقلت اراءها التحريرية
جميزة بالقراءان والحديث ولعل انتشار الفكر القراءاني
في الوسط البربري هو الذي حدا مؤسس النحلة
البربريانية الى وضع قراءان بالبربرية في ثمانين
سورة اطلق عليها اسماء للانبياء كآدم ونوح او
حيوانات كالجمال والديك والحجل والجراد او
الفاظ اخرى مقتبسة من القراءان كهاروت وماروت
وابليس والحشر وقد توثقت الصلة بين المغرب
والشرق منذ عصر التابعين حيث ارتحل العالم
سماك ابن واسول والد امير سجلماسة المدراري الى
المدينة لآخذ العلم وربما العقيدة الخارجية من
مكرمة (1) مولى ابن عباس تعززت دولة الضغرية
الخارجية في الصحراء المغربية الى منتصف القرن
الرابع حيث استعالت في عهد الناصر لدين الله الى
امارة سنية تخضع للمذهب المالكي الذي انتشر في
مجموع اصقاع المغرب اذا استثنينا فلولاً معدودة من
الفرق ظلت تنافس الخوارج كالشعبة الموسويين

فانا هنا نؤي اندفاع
ليس يحكمها ذكاء
لعل النجوم لو النجوم
تجيب في لغة الضياء
وسل الصخور الجائحات
بدون ياس او رجاء
وسل العباب الضخم يزحف في انخفاض واعتلاء
وسل الرياح الهوج تبدو بين عنف والتواء
يا ليت شعري ما القضاء وكيف الضائي القضاء ؟
أمصير اتماب الشعوب وما ينته الى القضاء ؟
ومن شعر ادريس حسن العلمي من قصيدة
طويلة بعنوان « الصفاء » :

لدى منبع النور مهد السناء
زها الفجر روتقه والسماء
وفي صفحة النهر ناعمة
بلمس النسيم ورقص الضياء
وبين الخمائيل اطيارها
تطربها بلديد الفناء
وعند المروج وعطر الزهور
وعند الهضاب وسحر المساء
نشدت لروحي الرضى والصفاء
ومن شعري النادر في صباي :

النور بدد ما اعتكر
لما بدا ضوء القمر
والارض في جنباتها
مرف الريح قد انتشر
وانساح في الروض المنعم
خده موج البشر
متناكرا متزاوجا
مستمرنا حلو السمر
فالجر يفتاه السناء
ببرقة تجلو النظر
والقلب يخفق نشوة
فيشع بالزهر البصر
والنفس تبس فيضها
فتزاحمت فيها الفكر
والطير يشدو زاهيا
من فوق افنان الشجر

(1) ذكر ابن خلكان ان مكرمة كان بربريا يرى واي للخوارج .

مالك فان منطقة نفوذه تجاوزت البصرة والحجاز الى الاندلس والجزر المتوسطية كصقلية واثينا حيث امتدت من مصر الى تونس والسودان والمغرب الأقصى (9) واذا كان هذا المذهب قد تمزج بالاندلس بفضل يحيى بن يحيى الليثي الذي كان مكيما عند الامويين وفي افريقية بفضل سحنون صاحب المدونة (10) فانه تركر عندنا لاسباب شتى منها ان الادارة ساندوه لمساندة مالك بيعة العلويين وتقديس البربر لمدينة الرسول عليه السلام ولعادتها التي اعتبر مالك العمل بها دعامة للمذهب مع اقرار المصالح المرسله وتحكيم الاحراف التي لا تصطدم مع روح الشريعة وابى المولى ادريس الا ان يسند القضاء لتلميذ مالك وسفيان الثوري محمد بن سعيد القيسي (11) وقد نشأت جامعة القرويين عام 245 هـ في احضان هذا المذهب كجامع تركزت فيه دراسة علوم الدين وعلوم الآلة مثل سائر المساجد التي تعتبر معبدا ومعهدا ياوي اليها الغرب ويجتمع في حلقاتها طلبة العلم ولكن هذا الجامع ما لبث ان أصبح في القرن الرابع مهيظا لرواد الفكر يتقاطرون على عاصمة استوطنها قرطبيون وقيروانيون من رجال

بالغات والروافض بالاطلس الكبير (2) والجليلين (3) بسوس وقد استاصل المربطون في صراعهم ضد البرفوطيين شافة هذه الطوائف التي اسهمت نحو من ثلاثة قرون في نشر الغريبة ضمن دعاويها العقائدية .

وكانت فاس ملتقى لشتى المذاهب السنية فقد عرفت مذهب الاوزامي ومذهب ابي حنيفة قبل ان يستقر فيها مذهب امام دار الهجرة وكان الاوزامي امام اهل زمانه - كما يقول مالك - انتشر مذهبه في الشام نحو مائتي سنة (4) وكذلك في الاندلس قبل الامويين (5) اما ابو حنيفة فقد ظهرت نظرياته بافريقية الى آخر القرن الرابع ومنها دخل الى الاندلس وفاس حيث لم يحدد الصراع بين المذاهب لانصراف المخاربة الى المذهب المالكي على ان الامام ابا جيدة الفاسي قد حمل معه من الشرق وثائق شافعية (6) بالاضافة الى تضلعه في التفاريع المالكية بينما لم يقدر ذلك للمذهب الحنبلي بالرغم مما اشيع من دخول احمد بن حنبل نفسه الى المغرب (7) وكذلك للمذهب الظاهري الذي تزعمه ابن حزم بالاندلس في القرن الخامس (8) . اما مذهب الامام

- (2) حسب ابن حوقل وهم اتباع موسى الكاظم الذي اخذ له والده جعفر الصادق البيعة بعد وفاة ابنه اسماعيل (الامام السابع للاسماعيلية) وقد رفضت البيعة لموسى فعرفت بالرافضة التي وجدت بالاطلس الكبير حسب البكري .
- (3) اتباع علي بن عبد الله البجلي بماسة وتارودانت .
- (4) خطط الشام لمحمد كرد علي .
- (5) مدارك القاضي مياض (ج 1 ص 66) الى ان رحل الى مالك قرعوس وشبطون زياد بن عبد الرحمن الذي ادخل الموطن الى الاندلس وغيرها فالزم هشام بن عبد الرحمن الاموي الناس بمذهب مالك حوالي 170 هـ اي في حياة مالك حيث كان شيخ المعتن صمصمة بن سلام تلميذ الاوزامي وامام مذهبه قد ادخل كتب الحديث الى الاندلس (جدوة المقتبس للحميدي طبعة 1952 ص 227) وقد لاحظ محمد كرد علي (مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مجلد 20 ص 321) ان بعض المذاهب كمذهب الاوزامي لم تكن تقل من غيرها شائنا غير ان الملوك لم يعضدوها ولم يهتم بها الخاصة والعامة وللأوزامي كتاب رد فيه على ابي حنيفة في خمس وثلاثين مسألة حربية اي من القانون الدولي العام وانتصر الشافعي في كتابه الام (ج 7 لاكثرها) .
- (6) توفى ابو جيدة حوالي 360 هـ (سلوة الانفاس لابن جعفر الكتاني ج 3 ص 93 طبعة فاس الحجرية)
- (7) كما ورد ذلك في الاعلام للزركلي (ج 1 ص 192) وفي شعراء بغداد للخاقاني (ج 1 ص 386) ومجلة اللسان العربي (عدد 3 عام 1965) .
- (8) لاحظ احمد امين (ظهور الاسلام ج 2 ص 7) ان الاجتهاد انحصر منذ القرن الرابع في اربعة مذاهب وابطل كما قيل نحو خمسمائة مذهب .
- (9) الديباج المذهب في علماء المذهب لابن فرحون المطبعة الحجرية بفاس ص 17) .
- (10) (جدوة المقتبس ص 360) .
- (11) الجدوة ص 13

الفقه والسنة وكان جامع الأزهر (12) يؤدي نفس الرسالة في الجانب الشرقي لأفريقيا الشمالية بينما ظلت جامعة الزيتونة بتونس العاصمة تتنافس مع القيروان ثم مع بجاية في القرن السابع وقد ظهرت في بادية الجنوب أول مدرسة عرفها المغرب كدار للمرابطين يلقي فيها القراءان ومبادئ العلم أسسها وجاه بن زلو المظلي تلميذ أبي عمران الفاسي الذي كان انتهى به المطاف في تجواله لانتجاع العلم والمعرفة إلى حاضرة إفريقية حيث برز أمثال أسيد بن الفرات وسحنون وابن أبي زيد القيرواني والقاسبي من رجالات الفقه والاصول وكانت قراءة حمزة هي الشائعة بين القراءات القروانية السبع إلى أن اختار المغرب كالقيروان قراءة نافع منذ صدر المائة الرابعة لتبسيط تلقين القراءان في الكتابات التي كانت مجرد جناح في المسجد (ولذلك تسمى السيد وهي تحريف مسجد) وكانت للعوامل السياسية بد قوية في الاختيارات العقائدية إذ ما كادت مثلاً مخطوطات «أحياء علوم الدين» للفرالي تنتشر بالمغرب حتى انبرى خصوم المهدي بن تومرت من المرابطين يدهون إلى تحريقها لما شاع آنذاك من اتصال الرجلين (13) وكان لتسرب المفاهيم والتعابير الفلسفية الغزالية أثرها في أوساط الفقهاء الذين ما لبث المهدي بن تومرت أن حملهم على عقيدة الأشعري السلفية من تأويل متشابه القراءان والحديث استناداً إلى ضروب المجازات مما يتلاءم وروح الشرع وبعضه العقل والطبع وحظر المنصور الموحد التقليد في الفروع وحمل الناس على الرجوع للأصليين على طريقة الاجتهاد المطلق وأحرق كتب المذهب المالكي بعد

تجريدتها من الحديث والقرآن كمدونة سحنون (14) وكتاب ابن يونس ونوادير ابن أبي زيد ومختصره وتهذيب البرادعي وواضحة ابن حبيب مستفيضاً عنها بأحاديث اقتبست من المصنفات العشرة على غرار ما نسقه ابن تومرت من أحاديث الطهارة فصار المنصور يملئها بنفسه كما يفعل السلطان العلوي محمد بن عبد الله في القرن الثاني عشر الهجري (15) وقد انتشرت هذه المراجع وحفظتها الناس من العوام والخواص (16) فكان فيها ثراء للغة واندرجت منذ ذلك العهد في الفصحى والعامية ماتت الكلمات ذات الأصل القرواني والحديث الفقهي . ومعلوم أن الأشعري لم يكن يؤمن بقدرة العقل المطلقة في البحث عن البراهين للدفاع عن الدين ولكنه لم ينكر أيضاً قيمة العقل فلذلك هدف إلى إبراز «موافقة العقل الصريح للشرع الصحيح» (17) ولم تكن هذه الانتفاضات الموحدية خلوا من دخيل سياسي كالمهدوية الشيعية التي عزز بها ابن تومرت نظام دولته .

وتروى في قصة المهدوية أحاديث وآثار وأخبار أوصلها ابن أبي نعيم إلى الأربعين وأضاف إليها السيوطي المصري ما نفاها وحفظها فراجت في المغرب وأثارت موجة من الإدعاءات حملت ابن خلدون على نقضها وتفصيل القول في منكرها ومع ذلك ظهر متنبئون كابن هود الماسي وحاميم الفماري وابن أبي محلي ووجد الكهان مجالاً واسماً لمخاريق أسندوها إلى حسابات الجفرية وهي جداول منسوبة إلى جعفر الصادق أمام الشيعة مخشوة بالتنبؤات من ماجريات المستقبل بأرقام ومربعات أصبحت لفة للكتاب

- (12) بني جامع الأزهر جوهر النصلي عام 359 أو 360 هـ في حين تأسس جامع الزيتونة سنة 141 هـ (758 م) (صفحة الاعتبار بمستودع الأمصار والاقطار للشيخ بيرم ج 1 ص 122)
- (13) أكد ملاقات ابن تومرت والفرالي ابن الخطيب في الحلل واليوسي في المحاضرات والركشي في تاريخ الدولتين والزبيدي ولم يجزم ابن خلدون في تاريخه ولا صاحب المعجب وقطع بنفسه ابن الأثير في الكامل والصواب في نظرنا التوقف لعدم وجود الدليل على هذا اللقاء .
- (14) أول من أدخلها إلى فاس دراس بن أسحاق المتوفى عام 362 هـ
- (15) إلا أن هذا السلطان كان ينهى في نفس الوقت من تدريس الأصول إذ لم يبق في نظره اجتهاد (الاتحاد لابن ريدان ج 3 ص 213).
- (16) المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي (طبعة سلا عام 1357 - 1938 ص 177)
- (17) هذا عنوان كتاب للحافظ ابن تيمية وقد تار أبو بكر بن العربي في كتابه (القواصم والمواصم) ضد ما أصاب العلماء في عهد المرابطين من جمود على تفاريع المذهب وضد طريقة التعليم التي تدرجت آنذاك من تلقين القراءان إلى الأدب ثم الموطأ فالمدونة فونائق ابن المطار فأحكام ابن سهل .

الذي عرف في مصر بأبي الخطاب السوسي وادخل الى المغرب مسائل الخلاف وحفظ البرهان لامام الحرمين ومحمد بن المنذر المراكشي (21) تلميذ امام الحنابلة الشيخ مولاي عبد القادر الجيلالي وقد درس الحديث والفقه بفاس بمحمد بن الخضر السبتي الذي سمع من ابن اصلاح كتابه في علوم الحديث (22) وعلي الحراي الذي كان ابتدئ في التدريس منهاجا « ينزل في التفسير منزلة اصول الفقه في الاحكام » ملاوة على تبريزه في المنطق والطبيعيات والالهيات (23) ومحمد بن عمران الشريف الكرزي الفاسي شيخ المالكية والشافعية بالديار المصرية والشمالية (24) ويونس بن طريفة القصري الذي ولي التدريس بدار الحديث الكاملة بالقاهرة سنة 641 هـ وبذلك اعطى المغرب الافصى الدليل الناصع على اهلية كاملة لتحمل رسالته الروحية الخالدة في العالم الاسلامي وبرزت فصحي هذا الشق الثاني من جناحي العروبة كابلغ ما تكون العربية في اصالتها وجزالتها ودقة مصطلحاتها في الخلاف العالي والتفاريع الفقهية وبذلك يمكن القول بان الانتاج المغربي قد اتحد مع الشرق في هذا المجال مبني ومعنى على ان نزع الاصلاح والتجديد لم تقتصر على الطب والصيدلة والكيمياء والفلسفة - كما سنرى بحول الله - بل شملت حتى علوم الآلة كنظرية ابن مضاء قاضي (25) قرطبة ايام الموحدين انكار العامل في النحو ، وقد اصبحت فاس (26) آنذاك بجامعة حاضرة المغرب العلمية وملتقى علمي (27)

المشعوذين وخاصة في الاطلس الصغير وذاع صيت المغاربة شرقا لاستبحارهم في علوم الطلاسم والتنزلات الروحانية التي تخللت تمايرها حروف سريانية ومصرية وتداخلت هذه المعطيات مع اسرار التنجيم التي خبرها فقهاء ومتصوفة ادرجوا معها خواص الاسماء وكان لذلك اثره في تعقيد التأويلات القردانية وخلق مصطلحات جديدة اورد بعضها ابن خلدون الذي علل لنا ببراعته بعض مناصرها مشيرا الى تكهنات مالك بن وهيب فقيه المرابطين ضد ابن تومرت الذي استغل في دعاويه هذا الاستعداد الفطري في نفوس العامة فبدأ بتأسيس رابطة للعباد جمع فيها طلبة القبائل ولقنهم تعاليم التوحيد بكتابه « المرشدة » باللسان البربري ولقب انتصاره بالموحدين ووصم خصومه بالتجسيم وهب لقتالهم باسم الدين ومهما يكن فان سوق القردان والحديث نفق فظهر اول تفسير للقردان لابن عطية اقتبس منه من كشاف الزمخشري مجردا من عناصر الاعتزال كما تلمذ للشرق محدثون مغاربة منهم ابن سمجون اللواتي الطنجي الذي اقام يقرر الحديث في المشرق ولم يدخله حتى حفظ - كما يقول باقوت - اربعة وثلاثين ألف بيت من شعر الجاهلية (18) ومحمد الجبائي (19) البغدادي الذي روى من الطبري وجلب من تأليفه احكام القردان واصول الفقه والرد على ابن حنبل وميمون بن ياسين الذي قرا على الطبري صحيح سلم وجمال الدين البغدادي الشافعي الذي ولد بقصر تنامة بشمال المغرب وعمر بن الطوير المراكشي (20)

18) معجم البلدان ج 6 ص 62 (19) توفي عام 546 هـ (سلوة الانفاس ج 3 ص 267)

20) توفي عام 622 كما في الدليل والتكملة .

21) الاعلام للمراكشي ج 4 ص 883 (22) توفي بدمشق عام 634 هـ (درة الحجال ص 282) .

23) حتى كان يقض النجاة لابن سينا انيل الابتهاج بابا السوداني ص 187 . (24) قال فيه تلميذه القرافي انه تفرد بمعرفة ثلاثين علما وحده وشارك الناس في علومهم (الديباج المذهب لابن فرحون ص 286)

25) احمد امين اظهر الاسلام ص 118 حيث لاحظ نقلا عن ابن جنى « ان الحركات من الرفع ومن النصب والجر والجزم انما هي للمتكلم نفسه لا لشي غيره .. وان ضرب انتهت بمجرد النطق بها فلا يمكن ان تكون عاملا في زيد او عمرو .. »

26) المعجب للمراكشي ص 221 .

27) وصف هذه الدروس الرحالة البلجيكي اكلينار الذي زار المغرب عام 948 هـ (1540 م) وكتب رسالة باللاتيني عن القرويين وهوالد الطلبة واوصل عدد مدارس فاس الى المائتين ولعله يعني الكتاتيب القردانية .

التوفيت والتعديل والتوحيد والمنطق والبيان والطب
وسائر العلوم العقلية ..

وقد تابع مات العلماء رحلتهم الى الشرق نذكر
منهم كنماذج لنوع التبادل بين الجناحين :

تاج الدين محمد بن ابراهيم المراكشي (701 هـ -
752 هـ) الذي اعاد بقية الشافعي بالقاهرة وولي
تدريس المسروبة ودار الحديث الاشرفية حيث
خلفه تقي الدين السبكي (31) وابن المواق احمد
التجيبى الذي استظهر الموطن بمصر فحضر شيوخ
المالكية الطبول على راسه (32) .

والمحدث الفقيه التاودي بن سودة الفاسي شيخ
مرتضى الزبيدي (33) .

وابن زكري الفاسي الذي عقد علماء الازهر
مجلسا لمناظرته في القضايا الفقهية كشرط
الدخان (34) .

ويحيى بن موسى الرهوني الحافظ الاديب
المنطقي الذي تولى التدريس في المنصورية والخانقا،
الشيخونية بالقاهرة (35) .

وجمال الدين محمد بن موسى المراكشي الذي
سمع من شيوخ مصر والشام والقدس واليمن حيث
ولي مدرسة الناصر (36) .

والكمال بن ابي البركات المكناسي شيخ المحدث
الحافظ ابن حجر المصقلاني (37) ومحمد تقي الدين
الفاسي الذي وافق ابن حجر في السماع بمصر
والشام واليمن (38) .

وابن الخطري المراكشي المصري الذي ذكر المقرئ
انه كان يحفظ المدة والاسماء لابن دقيق العيا

القيروان وفرطية وتركزت في القرويين بالاضافة
الى علوم التفسير والحديث والاصول والفقه والعلوم
التقليدية كالنحو والبيان والمعاني والبدع والمنطق
والعروض والكلام والتوحيد والتصوف واللغة
والادب والتصريف وكذلك الطب والرياضيات
(وهي الحساب بالمغرب) والجغرافية والتاريخ
وتوريدات افواج الطلبة الواردين على فاس من مختلف
الانظار الانثوية والغربية مثل جيرير Gerbert
الذي عين بعد ذلك على راس الكنيسة باسم البابا
سلفستر الثاني Sylvestre II عام 999 م وادخل
الارقام العربية الى اوربا . وقد عززت دولة بني
مرين هي الاخرى نظامها السياسي بتكتيل الطلبة
تحت شعار السنة وبناء المدارس (28) ومساندة
الصوفية وتشجيع الزوايا والاضرحة التي تفق
فيها - كما سنرى - سوق جديدة بعاداتها وتقاليدها
ودسائسها ومناطق نفوذها وادبها الخاص ولغتها
ومصطلحاتها .

ورغم تصارع الافكار في هذا الخضم من البدع
التي هزت السنة في مقر دارها فان العلم بالمغرب
ظل معاطا بسياج من القداسة بالرغم من فقدان
الملكة والتحقيق العلمي - كما يقول ابن خلدون
(29) وغلبة الاستظهار حتى قال علي بن ميمون الذي
زار الشرق فوائن بين فاس وبين حواضره في الشام
والحجاز ومصر من حيث الاصاله العلمية فقال :
« ما رايت مثله (اي فاس) ومثل علمائها في حفظ
ظاهر الشرع العزيز بالقول والفعل وفزارة الحفظ
لنصوص امامهم مالك وحفظ سائر العلوم الظاهرة
من الفقه والحديث والتفسير وحفظ نصوص كل
علم مثل النحو (30) والفرائض والحساب وعلم

(28) مفضل المدري صاحب الشرطة والحسبة بفاس اول من سن سنة بناء المدارس (جدوة
الاقتباس لابن القاضي ص 220) وقام ضد بنائها محمد الابلي العبدي شيخ ابن خلدون
ملاحظا ان ملكة العلم اندرست مع بناء المدارس وابده بابا السوداني (نيل الابتهاج ص 246) وقد
بلغ عدد المدارس بفاس اربعة عشر هي عبارة عن احياء جامعية اي مساكن للطلبة تحتوي على غرف
(29) نشر المثاني للقادري ج 2 ص 97 .

(30) كان موسى بن زيري الهسكوري المعروف بالبخاري يحفظ كتاب سيبويه عن ظهر قلب (درة الحجال
- طبعة الرباط 1934 ص 314) . (31) المدارس في تاريخ المدارس للتعميمي ج 1 ص 458 . (32) توفى
عام 725 هـ (السلسلة ج 3 ص 244) . (33) راجع مادة سود في شرح القاموس للزبيدي .

(34) السيرة ج 1 ص 83 . (35) توفى 774 هـ (درة الحجال ص 490) . (36) مات عام 823 هـ (الاعلام
للزركلي ج 4 ص 50 وذيول طبقات الحفاظ . (37) الاصابة ج 4 حرف م . (38) نيل الابتهاج ص 318

والشاطبيين والطوال في اصول الدين وابن الجلاب والرسالة في الفقه والحاجبية والملحة وغالب الفيسة ابن مالك والتلخيص وقد طارح الادباء وقرئ الشعر وشارك في اللغة والطب والهيئة وولى تدريس الفقه في مصر بجامع الحاكم والقرانسترية والحسنية والحديث بالفاضلية والامادة بالكاملية والمنصورية (39) .

وعبد الرحمن سقين الذي اخذ الحديث من القلقشندي وزكرياء الانصاري والسخاوي مصر ومن ابن فهد بمكة (40) .

وادريس العراقي الفاسي الذي كان له كما يقول صاحب السلوة فضل على محدثي مصر حيث استدرك احاديث كثيرة على الجامع الكبير للسيوطي تنيف على الخمسة آلاف وكان احفظ من ابن حجر (41) .

ومحمد بن محمد بن سليمان الروداني الفاسي الذي وصفه صاحب خلاصة الاثر بأنه « فرد الدنيا في العلوم » حصلت له بعد التطواف بمصر والحجاز والشام وبلاد الروم الرياسة العظمى في علوم خاصة بالطبيعي والالهي والرياضي والارتماطيقي والمساحة الرمل والحروف والسيما (42) وله كتاب جمع فيه كل مصنفات الحديث ضمن مقارنات علمية قيمة (43) .

ومدرسة الشيوخونية كانت اكبر مدرسة بمصر نظم اليها علماء مغاربة برزوا في شتى العلوم الفنون وقد قامت على اكتاف الفنان عبد الكريم لفاسي - كما يقول تيمور - (45) نهضة متواضعة - صناعة الخزف بمصر في القرن الماضي حيث كان يصنع الواح القاشاني (تسمى العائطيات بالمغرب) تغطي جدران العمارات وتوجد الآن نماذج منها في دار الآثار العربية بالقاهرة .

ولم يحظ المغرب الاقصى في مختلف العصور برؤس من علماء المغرب اذا استثنينا الوافدين في عهد المنصور السعدي (أي اوائل القرن الحادي عشر الهجري) من الحجاز وللسطين ومصر والشام والعراق والهند وقد سبق لصالح الدين الايوبي ان يبعث وفدا الى المنصور الموحد عام 585 هـ يطلب منه امداده بأسطول لحاضرة مكا ومصر وطرابلس الشام واوفد اليه ابا الحرث عبد الرحمن بن منقذ مع رسالة من انشاء القاضي الفاضل وقصيدة من نظم ابن منقذ مطلعها :

سأشكر بحرا ذا عباب قطمته

الى بحر جود ما لاخراه ساحل

وكل من الرسالة والقصيدة لا تختلفان في معناها ومبناها من اللون العادي التحجير الذي رسم الادب العربي في هذا العصر شرقا وغربا والذي جعل مصطلحاته متناسقة موحدة .

واستسمح حضرات الاخوة اذا انما ازعجتهم بلائحة طويلة استهدفت من سرد اسمائها اعطاء صورة عن اتجاه علماء المغرب الجديد في اعطاء الاسبقية للعلوم الاسلامية لاسيما منها التفسير والحديث والفقه مما اضفى على دراساتهم - رغم كلاسيتها ونفارتها الاستطردادية المملة - طابعا خاصا جعل منها مرجعا هاما في تاريخ التشريع الاسلامي وتاريخ تطور اللغة واذا كان الرحالون المغاربة من العلماء قد تضاءلوا في القرن الماضي بسبب الحواجز الاستعمارية التي اقيمت في طريق الحجيج بالجزائر منذ عام 1830 م فان المغرب ظل مع ذلك يتتبع بثلف جميع حركات التجديد المنبثقة من الشرق ويوالي بعث وفود رسمية تحمل دوريا هدايا وصلات لرجال الفكر وارباع الاوقاف المرصودة لاعانة الطلبة (46) وقد جدد السلطان محمد بن عبد

(39) توفي عام 872 هـ (الاعلام ج 4 ص 125 . (40) السادة ج 2 ص 160 .

(41) السلوى ج 1 ص 142 . (42) توفي عام 1094 (الاعلام للردكلي ج 4 ص 334) .

(43) طبع باسم مجمع الفوائد في مجلدين .

(44) نيل الابتهاج ج 84 و 96 وقد كان بمصر في اواخر القرن الماضي (عام 1898 م) نحو 1500 مغربي .

(الوثائق المغربية ج 11 ص 1907) .

(45) في كتابه حول التصوير عند العرب .

(46) وقد حبس السلطان محمد بن عبد الله مصنفات شتى على مكاتب القاهرة والاسكندرية وجلب كتباً من الشرق ورتب لاهل الحجاز واليمن مائة الف مثقال ذهبي كل عام (الاتحاف لابن زيدان ج 3 ص 251) والمثقال الذهبي قد عوض الدينار بالمغرب وضرب نوع منه بالرباط عام 1787م وكانت قيمته اقل من الدينار .

دائبة ما فتىء يبدلها رسل الفكر طوال ألف عام من الاستقلال إلا أن المغرب الأقصى ربما انفرد بسون خاص يرجع لانتشار حفظ القرآن والحديث والتون الفقهي والنصوص النحوية وحتى المعاجم اللغوية .

في شنيق وسوس ، مما فسح المجال لمئات المفردات العربية الخالصة التي طمعت لغة الخاصة والعامة وكان للحلقات العلمية التي تعقد يوميا وبحضرها الجمهور في مختلف المساجد (وما أكثرها بالمغرب حيث بنفت بفاس وحدها في عهد الموحدين زهاء خمسين وسبعمائة) أثر قوي في توعية الشعب وتفصيح لسانه حتى أصبحت الآي القرآنية والأحاديث النبوية والحكم الصوفية تتردد على كل لسان وأمسى القراءان معجم المساكين - كما يقول المثل العامي - يصححون منه اللغة وإذا تعرنا التنظير بجزء يسير مما ورد في كتابنا « المعجم الصوفي من القراءان » فإن حرف الألف منه يبلغ المائة منها كلمات الإخلاص وأرذل العمر والاستدراج والاستغاث والاستغفار والاستقامة والإسراب والأصنام والإطلاخ على الغيب والاعتصام والاقتصاد وأقشعرار الجلد والألواح والأمانة والامتنال والإنابة وأنباء الغيب والإنذار والانصب والانفاق والأوان والأوثان والأوليا والألحاد والألئة والإيمان .

وقد دخلت كثير من التعابير القرآنية في لغة العامة مثل قولهم « قتل كيف قدر » (أي ما د طبقا لما قدر في الأزل) و« قاتلهم الله » و« خلدو فاقتلوه » (وهي كتابة من فعل الشيء باستعجال وبالله وتعال بمعنى تعال وأنت) وقيل باسم الله أو توكل على الله (أي أشرع في العمل) والعصلا على النبي (إشارة إلى النهاية أو الكفاية خبرا) انشاء (ولا الضالين) كتابة من الموافقة بدلا من نعم وبآلتي هي أحسن (أي بالمول) إلى غير ذلك .

ومن المصطلحات التي تسربت إلى الفصحى والعامة عن طريق الحديث النبوي الشريف قوله حج فلان (أي بلغ الغاية) وصلى عليه صلاة الجنائز (أي يس من خيره وشره واعتبره كأنه مات) وكفر عليه (أي افتأظ منه) وفلان حال وأحوال (أي كثير النكير) وقد استعملت مثلا لفظتان في المغرب بمعنى خاص طبقا لمفهوم حديثين شريفيين وهما « المظاهر » بمعنى المرائض (وتسمى عندنا أيضا الميضعات طبقا للحديث الذي رواه مكحول عن معاذ مرفوعا « اتخذوا على أبواب مساجدكم المظاهر » وكذلك لفظ « البيت » بمعنى الجزء الصغير من الدار كلها .

الله عصر الموحدين بالدعوة إلى السلفية ودراسة الحديث وأمهات الكتب تركيزا للملكة العلمية بدلا من الانكباب على المختصرات التي حجرت الفكر وضرب لذلك أمثلة حية بتصنيف نماذج رائعة كما أصدر نجله السلطان سليمان رسالة نحا فيها منحى السلفية الصحيحة التحذير من الحياد عن المذهب السني وعدم التغالي في المراسيم الصوفية وكان كتاب عبد الله بن سمود قد وصل وأنداك إلى تونس وفاس يخل أسس الدعوة الوهابية : أي المذهب السلفي كما يراه محمد بن عبد الوهاب (فتصدى للجواب عنه عالم فاس الشيخ حمدون بن الحاج باسم السلطان وحمل الجواب إلى الحجاز نجله الأمير إبراهيم في وفد من العلماء لمناظرة الوهابيين .

وهكذا برهن المغرب دوما من روح إسلامية فياضة اهلت الشمال الأفريقي لاحتضان التراث الأندلسي ولربط أمجاد الماضي والحاضر والسير على معطيات الفكر الإسلامي في سلفيته الحق ولطبع الأجيال المتوالية بميسم المثالية في نطاق الوحدة الإسلامية وكانت هذه الروح تذكي حتى المرأة في خلدتها بالرغم من الدور المحدود الذي أسهمت به في تركيز التكوين الفكري في المجتمع المغربي نظرا لانتشار الأمية بين النساء وإذا كانت المرأة هي المدرسة الأولى للحياة والنواة الجوهرية للنم الوهي الديني داخل الأسرة فإن حصانة المرأة المغربية قد جعلت منها - بالرغم من ثقافتها المحدودة - مربية بارعة تضرب المثل الحي برصانة تفكيرها وحسن تدبيرها على أن تلة من النساء قد نبفن - على قلتهن - في مختلف المجالات الثقافية وخاصة في العلوم الإسلامية كخيرونة الفاسية والشيخة أم قاسم الأسقية وأم هانيء العبدوسية، وقد توالى بناء المدارس الدينية حتى بلغ عددها المائتين في سوس وحدها وانتشرت آلاف الكتابيب القرآنية على نطاق واسع في السهل والجبل كروافد للكليات والمعاهد « الأصلية » التي انطلق منها الإشعاع الديني بلغة القراءان وقد ظلت جامعة القرويين طوال مدة الاحتلال الاستعماري منبعثا للأحرار الذين أججوا نار الثورة ووثقوا الصلة مع زعماء الإسلام في الشرق أمثال الأفغانى وعده ورشيد رضى - بعد ما أوهنتها دسائس الاستعمار .

وهكذا نستجلى من هذا الاستعراض لتطور الفكر الإسلامي في المغرب الأقصى صورة لوحدة اللغة وتناسق مصطلحاتها مع الشرق العربي بفضل جهود

وما انتهت للجوف فهي الجائفة
وقوله :

والرقيق داء الفرج في النساء
كالتقرون والعفل والافضساء
والبضع بالبضع هو الشفار
ومعه ليس له قرار
وسمي الفاسن بالجميل
كذلك بالزميم والكفيل
والجنس بالجنس هو المرافقة
بالوزن أو بالمد فالعبدالة

ولا تخلو بعض مصنفات الفقه في الشرق من
هذا الإيجاز الفاضل التي حررت الملازم « العديدة »
لحل الفاره كمختصر الشيخ خليل المصري الذي
ادخله إلى المغرب منذ القرن الثامن الهجري محمد
ابن الفتوح أمكناسي (49) والذي حفظه الطلبة وحتى
الامة من ظهر قلب وبذلك تكون العلوم الإسلامية
قد أسهمت بحظ والفر في تطوير لغة الفضاة بهذا
الجناح الغربي للعروبة . غير أن التعليم الإسلامي
ما لبث أن تقلص وتقلصت معه حركة الوعظ والإرشاد
في المساجد وما تستتبعه من توعية شعبية من طريق
اللغة العربية وبدأت الإذاعة والتلفزة والصحافة تقدم
يومياً للشعب حمولة لا بأس بها من مصطلحات
العصر تعزز أحياناً بفتاوى دينية تصل بين ماضي هذا
البلد المسلم المحافظ وحاضره المتأرجح بين مختلف
التيارات وراى حماة العربية من رجال القرويين
وغيرهم في ذلك مأساة لمستقبل اللغة في روعتها
الاصيلة فحدثت خفارتهم اليقظة الجبل الجديد إلى الدعوة
لعربية معاصرة تستجيب لمقتضيات الحضارة الحديثة
وللتقنيات الملحة في دقتها ووضوحها .

فمن أحمد بن حنبل أن زوجة أبي حميد السامدي
قالت : « يا رسول الله اني احب الصلاة معك »
قال : « قد علمت أنك تحبين الصلاة معي وصلاتك
في بيتك خير من صلاتك في حجرتك وصلاتك في
حجرتك خير من صلاتك في دارك وصلاتك في دارك
خير من صلاتك في مسجد قومك » واما كتب الفقهاء
فقد دقت مفاهيمها وكتبت حول نصوصها ومتونها
مات الشروح التحليلية واصبحت لغتها من اعمق
اللغات دلالة ووضوحاً وقد وضعنا معجماً للفقه
المالكي (بالفتن العربية والفرنسية (47) يعطينا
صوره من مدى تلك الدقة وقد اندرج معظم هذه
الالفاظ في الحياة اليومية ونكتفي هنا بالإشارة إلى
كلمات من حرف الالف كإبراء واتفاق العلماء وأبلى
الدليل والإجبار والاجتهاد والإجارة والأجرة والأجل
والاختبار والإرتداد والإثراء والاستحقاق والاستحالة
والاستماع والاشتراك والاصول والافتصاب
والافتاء والأقالة واقامة الحدود والإقرار واقامة
البينة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر والمؤمنين
والإتفاق والإنكار وأهل الحل والعقد .

وقد كان للروح الاستقلالية في التشريع بالمغرب
مظهرها البارز في الاجتهاد داخل المذهب المالكي
نفسه حيث فرضت فاس مثلاً نظرها الخاص في
قضايا قانونية وفقعية تجلت في العمل الفاسي الذي
نظمه الشيخ عبد الرحمن الفاسي وشرحه الشيخ
السجلماسي .

وقد صنفت الآلاف من الكتب في الفقه
والفتاوى والنازول والأحكام بذت ما عرفه الشرق
وحفلت بالتعريفات الدقيقة للمفاهيم والدلولات
التي تزخر بها تلك المصنفات حتى صار المدرس
الفقهي في كراسي جامعة القرويين عبارة عن تحليل
لتلك التعاريف (48) التي كثيراً ما تنظم شعراً
يقول ابن عاصم في تحفته :

(47) نشر في العدد الرابع من مجلة اللسان العربي (ص 215) مع المعجم الصوفي (ص 176) .

(48) عرفت تونس أيضاً شيئاً من ذلك يتجلى في تعريفات ابن عرفة .

(49) المتوفى عام 818 هـ (درة البحال ج 1 ص 293) وقد دخلت كتب الحديث واللغة إلى الأندلس
ومنها إلى المغرب على يد قاسم بن ثابت بن حزم وهو أول من نقل كتاب العين (تاريخ علماء الأندلس
لابن الفريسي ج 1 ص 294) كما نقل ابن الضابط عثمان بن أبي بكر الصدي كتاب غريب الحديث
للخطابي ومحمد بن إبراهيم التلمساني شامل بهرام وشرحه لمختصر خليل وحواشي التفتازاني
على المعتمد وابن هلال علي ابن الحاجب في الفقه (شجرة النور ص 254) أما في الأدب والفلسفة
فقد أدخل عثمان بن المشي القرطبي (المتوفى عام 273 هـ) شعر أبي تمام بعد أن قرأ عليه (ابن
الفريسي ص 249) وفرج بن سلام القرطبي كتاب « البيان والتبيين » بأجازة من الجاحظ
(ابن الفريسي ص 286) وأبو الحكم الكرماني رسائل اخوان الصفا (طبقات الامم ص 71) .

الأثر الصوفي

منصور عبد القاهر البغدادي وربها تبعاً لاصحابها
على حسب الحروف الهجائية .

ويلد لي أن انقل لهؤلاء الذين يرمعون ان
التصوف المغربي تائر بالنزعة الصوفية المسيحية -
لا سيما ماسينيون الذي زعم ان الشيخ ابن عربي
الحائمي استمد من نظريات الكنيسة ما قرره
المستشرق الاسباني اسين بلاسيوس من ان نزعات
دانتي (Dante) الإيطالي وأوصافه لعالم الغيب
مستمدة من كتب محيي الدين الحائمي دون كبير
تصرف وكذلك اكهارت الألماني أول الفلاسفة الصوفية
الغربيين الذي نشأ في القرن الثاني لعصر ابن عربي
ودرس في جامعة باريس وهي الجامعة التي كانت
تعتمد على الثقافة الاندلسية في الحكمة والعلوم وقد
اقتبس ريموند من ابن عربي خاصة في كتابه (اسماء
الله الحسنى) لانه كان يحسن العربية. وعاش بعد ابن
عربي بقرن واحد وجعل اسماء الله الحسنى مائة
وهي لم تعرف بهذا العدد في الديانة المسيحية قبل
ذلك .

وسبينوزا Spinoza اليهودي البرتغالي كان كلامه من
الذات والصفات نسخة من فلسفة المتصوفة المسلمين
مع قليل من التحوير والمسيحية تكاد تكون فارغة من
الفكرة الصوفية كما اعترف بذلك ميشو بيلير في
محاضراته (ص 29) حيث ذكر انه اذا استثنينا
ما في بعض الاساطير من ذكر الكرامات وكذلك سيرة
القديسة تيريز والقديس فرانسوا داسيز فانه لا يبقى
شيء بالمرة .

ويقول جامي في نفحات الانس (ص 34) بان
أول من تسمى صوفياً هو أبو الهاشم الكوفي المعاصر
لسفيان الثوري ويرى السراج في اللمع (ص 22)
ان أهل بغداد هم الذين اخترعوا هذه الكلمة .

وأول من تكلم في بغداد في الحقائق الإلهية
والتوحيد سري السقطي (تذكرة الأولياء ج 1 ص
274) وأول من حاضر الناس في التصوف يحيى بن
معاذ الرازي المتوفى سنة 258 هـ (التذكرة ج 1 ص
299) .

التصوف المغربي قطعة حبة من التصوف
الإسلامي العربي لما تركته نظريات الصوفية المغاربة
من آثار مبنية في الفكرة الصوفية الشرقية .

ونزعة فصل التصوف عن الروح العربية
الإسلامية نزعة شبيهة بما حاوله بعضهم أمثال
رونان الذي قرر في كتابه (ابن رشد ومذهبه)
(Averroès et l'Averroïsme) من ان ما يسمونه فلسفة
عربية ليس الا مجرد محاكاة او تقليد لارسطو وضرباً
من التكرار لأراء وافكار اليونانيين كتب باللغة
العربية (ص 7) ولكنه تناقض مع نفسه حيث
اعترف (ص 89) (بان العرب مثل اللاتين - مع
نظائرهم بشرح أرسطو عرفوا كيف يخلقون لانفسهم
فلسفة ملأ بالعناصر الخاصة ومخالفة جد المخالفة
لما كان يدرس في الليسيوم) ولم يخف هذا التناقض
على أحد معاصري رونان وهو دوكا الذي ذكر في
مقدمة كتابه (تاريخ الفلسفة وعلماء الكلام المسلمين)
انه لا يمكن لعقبة كعقبة ابن سينا الا ان تنتج
جديداً .

وقد ضربت مثلاً بالفلسفة (50) لما بينها وبين
التصوف من وثيق الصلة حتى قيل ان التصوف
قطعة من مذهب الفارابي الفلسفي لا ظاهرة عرضية
فيه كما يزعم كارادوفو صاحب (مفكرو الاسلام)
وقد تأثر الفيلسوف المغربي ابن طفيل بالنزعة
الصوفية في (رسالة حي بن يقظان) حيث وصف
بطل القصة (ص 114) بأنه (لما فني عن ذاته وعن
جميع الدوات ولم ير في الوجود الا الواحد القيوم
وشاهد ما شاهد عاد الى ملاحظة الاغيار عندما افاق
من حاله تلك التي هي شبيهة بالسكر خطر بباله ان
لا ذات له يغاير بها ذات الحق وان حقيقة ذاته هي
ذات الحق ... بل ليس ثمة شيء الا ذات الحق)
وقد ذهب الناس مذاهب شتى في تعريف التصوف
حتى ساق ابن السبكي في طبقاته (ج 3 ص 239) ألف
تعريف سهر على التقاطها من مختلف المصادر ابرو

(50) احمد بن عبد الله بن محمد الدزوم المراكشي نزيل القاهرة جنح الى التصوف الفلسفي ونسخ
الفتوحات المكية والتنزلات الموصلية فكان أبو حيان لذلك يرميه بالزندقة وصار هو يصف ابا حيان
بأنه ظاهري حتى في النحو .
واحمد بن ابراهيم بن احمد بن صفوان : مشارك في الفلسفة والتصوف كلف بالعلوم الإلهية تلميذ
ابن عبد الملك المؤرخ وشيخ ابن الخطيب .

وقد أصبح التصوف مذهبا منظما أثناء الجزء الأخير من القرن الثالث (نيكولسن ص 28) ويلوح من ثانيا الرسالة التفسيرية والتذكرة ونفحات الانس أن صوفية هذا القرن اتخذوا القراءان والسنة ميزانا لجميع ما يخوضون فيه من بحوث نظرية وما يحسونه من حالات وجدانية .

ولكن منذ ذلك العصر تسربت شوائب مريبة الى الفكرة الصوفية التي بدأت نقية طاهرة وقد ذكر عبد الله الانصاري الهروي المتوفى سنة 481 هـ ان كثيرا من الاكاذيب انتحلت باسم ابي يزيد البسطامي مثل قوله صعدت الى السماء وضربت قبتي بازاء العرش (نفحات الانس ص 63) وهو القول الذي بنوا عليه قضية معراج ابي يزيد التي يقصها فريد الدين العطار في تذكرته بتفصيل .

وانتظام هذا المذهب ليس معناه اتحاد وجهات نظر من دان به لان تعاريف التصوف بلغت كما قلنا الالف ورد منها مائتان في الرسالة والتذكرة والنفحات وهذه التعريفات العديدة تدل على تعدد وجوه النظر في تصور الفكرة الصوفية (مجلة الجمعية الاسيوية سنة 1906 ص 330) فقد عرف الكرخي التصوف بأنه الاخذ للحقائق والياس معا في ايدي الخلائق (الرسالة التفسيرية ص 149) ووصفه ابو حفص الحداد بأنه تمام الادب (التذكرة ج 1 ص 331) وذكر ابو الحسين النوري ان التصوف برقة محرقة (الرسالة ص 149) وقرر ابو سعيد بن العربي ان التصوف ترك الفضول (نفحات الانس ص 348) وقال ابو الحسن البوشنجي : التصوف ضعف الامل ومداومة العمل .

اما الخانقاهات والرباطات الصوفية فقد بدأت تظهر قبل نهاية القرن الثاني الهجري واول خانقاه اسس لتصوفة المسلمين (على ما في النفحات ص 34) كان بالرملة في فلسطين وذكر المقرئ في خططه (ج 2 ص 414) ان الخانقاهات - او الخانقاوار كما يسميها - وجدت في الاسلام في القرن الخامس الهجري .

والخانقاه اعمق في التزمت والرهبة مما عرف بعد الروايات لان هذه الخانقاهات كانت مبنية في معظمها على نظام صارم من التبتل والرهبة .

ان تاريخ الحركة الصوفية جزء من تاريخنا العام الذي لا يشمل الجانب السياسي والاقتصادي والاجتماعي فحسب بل يتجاوزه الى الجانب الثقافي والروحي . على ان التصوف المغربي كان له كبير اثر في توجيه وتلوين جميع مرافق الحياة بحيث انتشرت شدرااته في مصنفات لم يكن من المنتظر ان تحفل به فانك تجد اخبار الصوفية وحياة الزهاد ووصف الحركات الطرقية التي قامت في المغرب في وقت مبكر - مبشرة في كتب التاريخ والتراجم والمناقب والفهارس والرحلات ، بل حتى كتب الفقه مثل شرح ميارة علي المرشد ومييار الوشرسي الذي تحوي اجراؤه نتفا متناثرة لو نسقت لتحصلت منها مجموعة لابس بها في وصف التيارات المتعاكسة التي خلقها انشاق الطريقة في المغرب .

ويغلب على ظننا ان الحركة الصوفية كانت انشط في الجبل (الاسيما الريف) والقرى منها في الحواضر اللهم الا بعض مدن الساحل التي كانت مهبطا لصوفية الاندلس كسبتة واسفي وسلا او مدن داخلية كمراكش وعاس نظرا لاشعاعها الثقافي الذي تجذب له النفوس . . ومهما يكن فان اولي التراجم الصوفية انما حظيت بها قسرى البادية ككتاب « المقصد الشريف والمنزوع اللطيف في ذكر صلحاء الريف » لعبد الحق البادسي (في القرن الثامن) والمعزى في ترجمة ابي يعزى « وائمد العيين » لابن تجلات في مناقب الاخوين الهزميريين الذين عاشا ردحا طويلا في الهماة ثم حظي صوفية المدن بكتب منها « المنهاج الواضح » في ترجمة ابي محمد صالح (المتوفى عام 631) تلميذ ابي مدين الفوث ا ومدينة اسفي نفسها انما بنيت حول ضريح ابي محمد صالح كما قامت مدينة زرهون حول الضريح الادرسي بعد بناء المولى اسماعيل لهذا الضريح عام 1110 هـ وتأسيسه جامع الخطبة الكبير المتصل بالضريح وكذلك وزان) «والسلسل العذب الاحلى في صلحاء فاس ومكناسة وسلا » لمحمد الحضرمي الذي صنفه في القرن الثامن وكذلك « الكوكب الوقاد فيمن حل بسبته من العلماء والصلحاء والعباد » .

ولعل من اقدم الرباطات المغربية رباط وجاج بن زلو اللطفي السوسي الذي كان يسمى دار المرابطين وقد اتخذ مجمعا لطلبة العلم وقراء القراءان حسبما ورد في التشوف (ص 36) الذي نجد من بين رجاله الصوفية كثيرا من « المعلمين » المنقطعين لتعليم

كتاب الله . وهذا مظهر ثان لنوع ما كان يشتغل به الصوفية اذ ذاك وسنرى فيما بعد كيف تطورت الفكرة الصوفية فانضافت الى التعبد بالقرءان تعبدات بالادمية والاذكار .

وكان هناك نوعان (51) من الرباطات : رباط من الطراز الذي اشرنا اليه وكان يشمل المدينة بأكملها كرباط ماسة ورباط تيط ورباطة زرهون ورباط من نوع آخر هو عبارة عن محلة يربط فيها المجاهدون وقد روى ان الضفة اليسرى لمصب ابي وقرق كان يربط فيها نحو من مائة الف من الفزاة الذين كانوا يتطوعون لمقاومة التحلة البرغواطية .

وبين هذه وتلك الرابطة التي ابتناها عبد الله ابن ياسين في جزيرة قرب الساحل وتبطل فيها ثلاثة اشهر مع نفر من كدالة وفي مقدمتهم يحيى ابن ابراهيم امير صنهاجة وقد توارد الناس على هذا الرباط حتى بلغ عدد المرابطين الفاس من اشرف صنهاجة كانوا النواة التي قامت بتأسيس الدولة المرابطية فكانت هذه هي الدولة الثالثة التي قامت في المغرب على اساس فكرة مذهبية بعد الدولة المرادية في سجناسة والدولة الادريسية في الشمال وقد نسج استمداد المغاربة الروحي المجال للعمارة الهدوية مثل محمد بن تومرت الذي اسس دولة الموحديين والمعبدي الذي قام بعده في جبل ورغة من احواز فاس حيث تبعه كثير من قبائل المغرب اول عام 600 هـ .

وكانت نفس الحركة ملحوظة كذلك في الاندلس ايام المرابطين حيث ذكر صاحب لسان الميزان (ج 1 ص 247) ان احمد بن قسي ابني مسجدا في بعض قرى شلب (بالبرتغال) وتحدث بالاباطيل ، كما ادمى النبوة ابراهيم الفزاري الساحر .

وقد تسربت الى المغرب من الاندلس الطائفة المسرية التي لم ينتشر نفوذها لقيام العثماء بنقصه وفي طلبعتهم الامام ابن حزم الذي لا نعرف نظريات ابن مسرة الا من خلال انتقاداته وهذه الطائفة وان كانت لا تنسب بالطابع الطرقي الا انها من المذاهب

التي اوتكر انتحالها على مذهب صوفي اساسه التأويل الرمزي للقرءان على طريق الاسماعيلية التي لعبت دورا كبيرا في تبلور الفكرة الصوفية في الاسلام . . ومنها الطائفة الاندلسية التي اسسها محمد الاندلسي نزيرل مراكش وكان رجلا مولما بالطب والكيمياء نسب الائمة فافنى فقهاء الحمراء بتخليله وزج به السلطان في غياهب السجن .

وقد ظل المغرب خلال العصور الاولى بعيدا عن الطوائف الضالة ومن النظريات الشاذة التي كانت تصف اذ ذاك بالشرق وقد شهد ابو بكر الطرطوشي الذي صنف كتابا في البدع والمعادنات في رسالة وجهها من الاسكندرية الى سلطان المغرب بان اهل المغرب هم المشار اليهم في الحديث الشريف « لا يزال اهل المغرب ظاهرين على الحق » لما هم عليه من التمسك بالسنة والجماعة وطهارتهم من البدع والاحداث في الدين !

فنحن لا نكاد نجد اثارا بدعة جافية في ربوع المغرب قبل القرن السادس ولا يمكن ان نعتز فيما صنف خلال القرون الاولى كالتشوف على اشارة الى شذوذ عند الصوفية او صدور دعاوي نابية عنهم لان التصوف كان اذ ذاك مطبوعا بالساطرة ولم يكن الصوفية يختلفون من بقية الناس الا بكثرة العبادة وتلاوة القرءان وسرد المأثور من الادمية وكانت الاذكار نفسها مقتبسة من الآثار الواردة ومن القرءان من ذلك بعض الاحزاب لاسيما احزاب الشاذلي التي تتألف مطالعها من سلسلة آيات ولم يكن لبس الخرقعة والمرقعة صفة لازمة للصوفي المغربي الا اذا جاء ذلك مفوا من طريق الزهادة في متع الدنيا وكانت الرباطات عبارة من مجامع لقراء العلم وتلاوة القرءان والجهاد فاذا طالمت تشوف ابن الزيات وجدت ان كثيرا من رجاله كانوا « معلمين » او مدررين يعلمون القرءان للصبيان !

وكان الامر على خلاف ذلك في الشرق حيث ترجع معظم المستحدثات الشاذة الى القرن الثالث كوحدة الوجود والخطول والتحدث بلسان الحقيقة المحمدية والابفال في لسن المرقعات واندساس

(51) عدد الربط والزوايا في سبعة سبع واربعون محاذية للبحر داخل المدينة والارياض (اختصار الاخبار لمحمد بن القاسم الانصاري Hespéris م 12 عام 1931 ص 155 .

الإدعياء في صفوف النزهاء حتى كان القشيري ينشد
إذا جلس إليه الصوفية وعليهم الهيات والرفعات
أبياتا منها :

أما الخيام فأنها كخيامهم

وأرى نساء الحي غير نساها

ثم يقول أما الهيات والرفعات لمعروفة وأما
القلوب فمكترة وكان الجنيد ينشد :

أهل التصوف قد مضوا

صار التصوف مغرقة

صار التصوف ركوة

وسجادة ومذلقة

غير أن الفكرة الصوفية ما لبثت أن تشعبت
فتسرب إليها الانحراف والشذوذ بعد القرن الثامن
الهجري على اثر انتشار الطريقة واندساس الادعياء
في الروايات والرباطات فانتحل الكثير المذهب الصولي
لأغراض لا تمت إلى الروح بصلة وأصبح التصوف
عرضة للافتيات يستغله كل من يريد التوصل إلى
أغراض الدنيا من طريق السجدة والتدليس على
العوام والدهماء فتجردت الطريقة من شتى مظاهر
الرواء والسمو والجاذبية والجمال

وبدأت الفكرة الصوفية المغربية تتبلور منذ
القرن الثامن محاطة بهالة من الشكليات المستحدثة
وما زال التراث الصولي يتضخم ويتسع إلى أواخر
القرن الثاني عشر حيث اتضحت الخطوط واكتملت
الرسوم والحدود بفضل ذلك النبع الفياض من
التأليف التي ترجمت للصالحين ومناقبهم وطرأاتهم.

والحقيقة أن التصوف بدأ يتدهور منذ أصبح
في متناول العوام تلوكه السنتهم في غير هدى ولا
اتزان ولن أضرب لك سوى مثل واحد وهو طريقة
أبي محمد صالح دفين أسفي وتلميذ أبي مدين
الفوت فقد كان أمارا ذائع الصيت يرد عليه الصوفية
حتى من مصر للأخذ منه وانتشرت طريقته خلال
القرن السابع فكثرت تلاميذه في الشام وبلاد الكنانة
حتى مدحه البوصيري بقصيدة طويلة مطلعها :

فقا بي على الجرهاء من جانب الغرب
ففيها حبيب لي بهم به قلبي

غير أن طريقته هذه التي كانت سنية المعالم ما
لبثت أن انحرفت بما دسه فيها الدخلاء والإدعياء
وأصحاب الأغراض من الدجاجة والمبسين .

وفي القرن الثامن ظهر ابن خلدون بكتابه
« شفاء السائل » فرد الطريقة إلى أصولها وحل
خصائص الصوفية الحقيقيين ليميزوا عن الادعياء.

وفي القرن التاسع برز محتسب الصوفية
الإمام الناقد الشيخ زروق بكتابه « حدة المريد الصادق
من أسباب المقت في بيان الطريق وذكر حوادث
الوقت » ، وقد علل انتشار المبتدعة والإدعياء بانتقاص
الايان والجهل بأصول الطريقة واعتقاد أن الشريعة
خلاف الحقيقة (وهذا عنده من مبادئ الرندقة)
وحب الرياسة مع الضعف عن أسبابها ثم أكد أن
الصوفية الحقيقيين أنفسهم عرضة للخطأ وأن
مقالاتهم يجب أن تعرض على الكتاب والسنة وأن
الفقه والأصول شرطان في التصوف فلا تصوف إلا
بفقهه .

وقد تعرض إلى الأسس العملية التي بنى عليها
الطريقون مددهم فذكر أنهم قرروا مخالفة النفس
بكل وجه وغلطوا في هذا الإطلاق لأن المقصود موافقة
الحق بمخالفة النفس لا مجرد مخالفتها واستشهد
بقول عمر بن عبد العزيز :

« إذا وافق الحق الهوى فذلك الشهد بالريد »

وأنهم تجردوا عن المعتادات بـدلاً من الانس
بها وتغالوا في بعض المظاهر كتوفير ما تحت اللحية
وإدخالها على أنفسهم المشاق والأجر على الإتيان لا على
قدر المشقة وقد أشار إلى الفتن التي وقعت في
الاندلس في القرن الثامن حول قضية اتخاذ المشايخ
حتى تضارب الناس بالنمال وكتبوا إلى البلدان
الإسلامية يستفتون ولا شك أن شيوب هك
الفتن كانت نتيجة مباشرة لانحراف التصوف عن
الجادة وتدخل العوام في رفاقته ، كما كان أبو
الحاسن الفاسي ينهي عن ذلك مؤكداً أن كتب
الحائمي وأبن الفارسي « تسد على الناس باب الفتح »
حسب تعبيره ويدعو إلى الإدمان على حكم ابن عطاء

الله . والشمراني (52) نفسه كان ينهى مرديسه من قراءة كتب التصوف والتوحيد المطلق كمصنفات ابن عربي وغيره من « غلاة الصوفية » (البحر المورود ص 274) وهذا لا يتنافى مع ما جاء في مقدمة اليواقيت والجواهر من الدعوة الى كتب ابن عربي فانه احتسب هناك - كما يقول زكي مبارك - حين اقنع المرید بأن ما جاء في كتب ابن عربي مخالفا للشرع انما هو من وضع الدسائس .

كما حمل اليوسي في محاضراته حملة شعواء على ادمياء الطريقة ورسوم لنا صورة مما انتهى اليه التصوف المغربي بسبب من اندس في حظيرته من مفرضين فقد قال : « كم تظاهر بالخير من لا خير فيه من مجنون او معتوه او موسوس او ملبس فيقع به الاغترار للجهلة الاعمار .. وقد يشايحه من هو مثله من الحمقى ومن الفجار » (ص 39) ومن الحرب ما حكاه اليوسي (ص 40) ان رجلا ورد على سجلماصة واتسم بالصلاح فاقبل عليه الناس ثم تبين بعد انه يهودي .

وكانت البادية المغربية اكثر ابغالا في الابتداع واشد انحرافا عن الروح لغلبة السذاجة على اهلها الذين كانوا يلفون في التبرك بالآثار الصالحين حد الشلوذ .

وفي القرون الاخيرة اختلت المقاييس وتشتت الدعاوي واستفحلت النحل فكنت ترى افواج الناس يقصدون ضريح مولاي عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه كل سنة للوقوف به يوم هرفة ويسمون ذلك حج المسكين وتجد آخرين يسمون انفسهم بأهل الخواطر يتجمعون بأحد مساجد عدوة الاندلس للتحدث من الخواطر ومعرضها على الشيخ وتاويلها غير ان علماء الصوفية كانوا حريصين على فصح الدجاجة الذين يندسون في حظائرهم التماسا لاهراض الدنيا وحطامها على ان دعاء السلفية امثال الطرطوشي وابن العربي المعافري وابي محفوظ راشد من المغاربة وابن القيم وشيخه ابن تيمية وابن

الجوزي من المشارقة قد تشبعوا هم انفسهم بالتصوف السني واذا رجعنا بين المتأخرين الى سيرة محمد عبده وجدنا تلميذه مصطفى عبد الرازق يؤكد في الكتاب الذي خصصه لترجمته ان الشيخ درويش التر بتريته الصوفية في الاستاذ وبطل هذا التأثير قائلا : « اذا كانت التربية الحديثة تدعو الى تهذيب الاذواق بفنون الجمال الحسي فان التربية الصوفية تدعو الى تلطيف السر بأنواع من الرياضة » وقد جاء في ملخص سيرة عبده المنشور في المجلد الثامن من المنار « انه لكثرة الانهماك في الذكر والنظر في كتب التصوف والتنقل في احوال القوم ومقاماتهم يخرج (اي الاستاذ) عن حسه ويرج في عالم الخيال او عالم المثال كما يقول فيناجي ارواح السالفين » وقد كان التصوف والتفسير هما « قرنة ميم الاستاذ » على حد تعبير مصطفى عبد الرازق فسير ان جمال الدين الافغاني « خلق محمد عبده من التصوف بمعنى الدروشة والانتقطاع الى التحنن والرياضة الى معنى للتصوف جديد (ص 74) وقد ترجم محمد عبده شيخه الافغاني في صدر رسالة الدهريين فوصفه بأنه « حنيفي مع ميل الى مشرب السادة الصوفية رضي الله عنهم » .

وحمل زكي مبارك على الصوفية ما شاء له فكره الثائر وقلمه الجامع ولكنه عاد آخر الامر فقال في كتابه « التصوف الاسلامي » : الصوفية هم الناس ومن عداهم اشباح بلا ارواح » (ج 2 ص 205) وقال : « ان الصوفية اعقل من الادباء واشرف سبقتي الصوفية بهم راضين مبسمين اما نحن فنسذهب الى النار في ركاب امريء القيس الذي انلده الرسول » (ج 2 ص 322) .

وقد قدر للمعاني الصوفية الرقيقة ان تستهوي جميع اصناف المثقفين في مختلف العصور ولكن كل طائفة نظرت الى اسرار التصوف من خلال مزاجها واللون الخاص الذي تكيفت به روحها في الحياة وقد لاحظ ذلك زروق في قواعده (القاعدة رقم 59) .

(52) ذكر الشمراني في « تنبيه المفترين » (ص 7) ان بعض الناس دس في كتابه البحر المورود في المواليق والمعهود وفي مقدمة كتابه « كشف الغمة من جميع الامة » ما يخالف ظاهر الكتاب والسنة واثار ذلك فتنة في الجامع الازهر ولم تخمد الفتنة الا بعد ان ارسل النسختين الاصيلتين المجازيتين من بعض مشايخ الاسلام الى العلماء الازهرين للاطلاع عليهما وقد اشار الشمراني في كتابه الى ما استحدثه كثير من مشايخ وفقراء عصره مما يخالف السنة حتى اصبحت اصول التصوف غريبة عند متحلي الطريقة

المصر ذروتها . لكن سقوط الدولة المرينية كان على يد الصوفية بسبب ما اتسم به بعض امراء بني وطاس من ميع وانحلال .

لقد انتشرت شرارة الثورة السعدية من سوس نعمت البلاد ملتهمة ما تبقى من نفوذ الوطاسيين واغلب ما فى الامر ان محمد الشيخ مؤسس الدولة السعدية ما لبث ان انقلب على الصوفية فقد امتحن ارباب الروايا منذ سنة 958 وذلك خوفا على ملكه لما كان للامة فى اصحاب الطوائف من اعتقاد . وفى ايام زيدان تضعف نفوذ السعديين واستقل المجاهد العياشي الصوفي بالامر فى كثير من النواحي وكانت شوكة الصوفية قوية وجانبهم منيعا حيث بلغت الزاوية الدلائية عنفوانها .

وقد قام ضد زيدان احد الادعياء المتمهدين وهو احمد بن ابي محلى الذى توجه الى بلاد القبلة ودعا لنفسه فاستخف قلوب العوام .

ولما استقر الملوك العلويون بالنفوذ فى المغرب قضى مولاي رشيد على زاوية الدلاء بعد معركة دارت بينه وبين اهلها فى بطن الرمان اوائل المحرم عام 1079 هـ وهم السلطان المذكور كذلك بمحمد ابن محمد بن ناصر وجيز مقلته للزحف الى زاوية درعة ولكنه عدل عن ذلك بعد ان تحقق صدق ولاية الرجل .

كما جدد المولى اسماعيل بعض الاضرحة التى لم تكن فى ذلك العهد اكثر من مساجد تقام فيها الصلوات وترتل فيها آي القران والاذكار والدعوات فلم ير الملوك ما يدمروا الى استنقاصها بيد ان الاستعمار وصنائع الاستعمار السدوا جوانب من هذه الروح الطيبة التى كانت تسري فى هذه البيوت الطاهرة .

ولعل من ابرز نماذج التصوف المغربي ابي الفيلسفة الروحية والخلقية المغربية رجلا تغلغل مقالاته السيرة فى قرارة النفوس فقامت اودها طوال اجيال متوالية وطبعت التصوف المغربي بميسم خاص افرغت منه الحقيقة الصوفية فى قوالب شرعية وروح التوكل فى صورة السبب ولطائف الروح واسرار النفس فى اشكال مبسطة وذلك الرجل هو سيدي يوسف الفاسي الفهري - ويمكن

واذا استعرضنا تاريخ الثقافة المغربية وجدنا ان قطاب التصوف كانوا فى نفس الوقت جهابذة الفنون وزعماء العلوم وقد ذكر صاحب « نشر الماني » انه لولا ثلاثة لانقطع العلم من المغرب فى القرن الحادي عشر لكثرة الفتن وهم محمد بن ناصر رئيس زاوية درعة ومحمد بن ابي ابرك المجاطي رئيس زاوية الدلاء وعبد القادر الفاسي الذى تبلورت فى هذه الطريقة الزروقية وغالب فقهاء افريقيا - كما قيل - تلاميذه وقد قيل فى العربي ابن ابي المحاسن الفاسي ان به ختم علماء المغرب وكذلك والده وعنه ابو زيد الذى افاض ابو العباس المقرئ فى وصف غزارة مادته لعلماء مصر عندما سألوه عن علماء المغرب فشبهه كما شبهه غيره بالسوطي لوفرة علمه وقد تمحض ابو زيد لتربية المريدين وتلقيس الاوراد على سعة علومه وذكر صاحب الديباج ان محمدا المقرئ تكلم فى طريق الصوفية كلام ارباب المقال ودون فى التصوف « اقامة المريد » و « رحلة المتبتل » و « كتاب الحقائق والرفائق » الذى شرحه زروق .

وقد تمخضت الحركة الصوفية عن نمو وازدهار الثقافة فى ربوع المغرب لاسيما البادية ولا يغفى ما اسدته الزاويتان الناصرية والدلائية من اباد بيضاء فى هذا الباب وقد كان فى زاوية محمد بن وسعدن السوسي تسمانة طالب يكسبهم ويطعمهم من ماله الخاص وظل مستمرا على مبرته هذه اربعين سنة .

وكانت كتب التصوف تدرس الى جانب كتب الحديث والتفسير فهذا ابو المحاسن الفاسي يدرس قوت القلوب والاحياء والشريشية فى آداب السلوك ويلتف حوله خلق كثير وفى آخر حياته نفى بده من سائر العلوم الاخرى واقتصر على التفسير والحديث والتصوف واهل المحاسن هذا كان اذا توجه من فاس الى القصر تعطلت الاسواق او كادت لخروج الناس لمقابلته .

وهذا النفوذ الذى كسبه الصوفية حدا المرابطين والموحدين الى امتحانهم حيث استندوا من الاندلس او افريقية امثال ابن العريف وابي الحكم بن برجان وابي مدين الغوث .

وقد هدأت نوعا ما حركة الامتحان فى عهد المرينيين الذين لم يكونوا يخشون امتداد نفوذ الصوفية لان الدولة كانت قوية الجانب قد انصرفت الى اتمام صرح الحضارة المغربية التى بلغت فى ذلك

القول بأن نظريات هذا الرجل الخلقية والنفسية والالهية تتركز فيها خلاصة النظريات المغربية في هذا الباب .

ومن نظرياته الطريفة ان الرجل قد يؤخذ من العالم الأدنى ليرقى الى العالم الاسنى وذلك عندما يتمحص صدقه واخلاصه وتضمحل انانيته فتتكشف في باطنه حقائق وتحتاج في سره رقائق وتعرض له احوال وجدانية لا تنضبط ولا ترتبط بمهمود وقد تسمو روحانية الصوفي فيتجرد عن بشريته ويتحد أي في التوحيد لان الغناء هو اتحاد بلسان المجاز وتوحيد بلسان الحقيقة. وهذه الظواهر كلها ذوقية وجدانية (فمن ذاق - كما يقول الشيخ يوسف - عرف ومن لم يدق فلا حرج اذا سلم وامترف وهذه طرائف تقصر عنها العبارة ولا تلحقها الاشارة اذ لا يفهم منك الا من اشرق فيه ما اشرق فيك) .

وقد تجلى ابرز مظهر للتصوف الحقيقي في المغرب في اقرار التسامح والسلام في المجتمع واسعاف طبقاته المعوزة واجراء الامدادات الموصولة لتخفيف وطأة البؤس فهناك مذهب صوفي مغربي بعث يرجع الفضل في وضع اسمه ونشر دعوته لرجل من اهل القرن السادس هو ابو العباس السبتي (53) الذي كان يرى ان لباب القوانين الشرعية هو الصدقة فكان يجلس في الاسواق والطرق ليحض الناس على البذل والجود مرددا بكلماته الخالدة :

(اصل الخير الاحسان واصل الشر البخل)
وقد اشتهر مذهبه ابما اشتهار حتى نمته معاصره الحاشي في فتوحاته المكية بصاحب الصدقة في مراكش .

وقد كان لهذه الدعوة اثرها فأسست الملاجيء في مختلف انحاء المغرب حيث كان يأوي المعجرة

والفقراء والطلبة فيجدون الطعام السائغ والفراسح الوديع وقد تنافس الصوفية في هذه المظاهرات الاحسانية فاضطر الملوك الى المساهمة فأسسوا الزوايا في الفلوات لايواء عابري السبيل واوقفوا لها الاوقاف الوفيرة .

ومن نماذج الاسلوب الادبي الرائع في التصوف ما كتبه ابن خلدون في مقدمة كتابه « شفاء السائل » حيث قال : « وقمني بعض الاخوان ابقاهم الله على تقيد وصل من عدوة الاندلس وطن الرباط والجهاد وماوى الصالحين والزهاد والفقهاء والمباد بخاطب بعض الاعلام من اهل مدينة فاس حيث الملك يرار ويحار العلم والدين تزخر وثواب الله بعد لانصار دينه وخلافته ويذكر طالبا كشف الغطاء في طريق الصوفية اهل التحقيق في التوحيد الدوقي والمعرفة الوجدانية هل يصح سلوكه والوصول به الى المعرفة الدوقية ورفع الحجاب عن العالم الروحاني تعلمنا من الكتب الموضوعه لاهله واقتداء بأقوالهم الشارحة لكيفيته فتكفي في ذلك مشافهة الرسوم ومطالمة العلوم والاعتماد على كتب الهداية الوافية بشروط النهاية والبداية كالاخياء والرهابة ام لا بد من شيخ يبين دلالته ويحذر لهوائه ويميز للمريد عند اشتباه الواردات والاحوال مسائله فتتزل منزلة الطبيب للمرضى والامام العدل للامة الفوضى » .

ثم تحدث من اغراض التصوف ومصطلحاته فقال : « نبيان هذه الاصطلاحات يتضح الكثير من هذا الغرض » فمن ذلك تحليله لتكشف عند الصوفية بقوله : « وبيان ذلك ان المبصر اذا رأى شخصا ثم غمضت الاجفان دونه بقي متخيلا ثم اذا فتح اجفانه مرة اخرى رآه كما كان فبين العاليتين كشف »

وقد تحدث باسهاب من هذه المصطلحات فقال : « اقتضى التعليم والمفاوضة في المجاهدة الخاصة المنفردة من الجمهور الانفراد باصطلاح خاص يكون لهم في مفاوضاتهم والفاظ مخصوصة بيمان من

(53) وجه ابن رشد الى مراكش هالما قرطبيا لدرس نظريته التي لاحظ انها مركزة على المبدأ القائل بأن « الوجود ينفع للوجود » وقد لاحظ التادلي في ملحق التشوف (الاعلام للمراكشي - فاس 1355 ج 1 ص 240) انه « يرد اصول الشرع الى الصدقة » وكان القراءان على طرف لسانه ولد عام 524 هـ ومات بمراكش عام 601 هـ وشيخه الفخار هو صاحب عياض - كان يجلس حيث امكنه الجلوس من الاسواق والطرق فيحض الناس على الصدقة » وكان يميز رفيع البدين للتكبير للتخلي من كل شيء والركوع بالمسطرة والسلام بالخروج من كل شيء وان سر الصوم الجوع وتذكر الجائع والزكاة التدرب على البذل .

غير ان هذه المصطلحات الصوفية المتعددة لم يدخل بعضها للمغرب الا في عهد المرينيين ضمن التراث الاندلسي اذ ان كتب التصوف قبل القرن الثامن كانت اشبه بكتب السير محشوة بآيات الوعظ القراءانية والاحاديث والاذكار النبوية

من ذلك ما عرّض به التادلي الفكر الصوفي في كتابه « التصوف في رجال التصوف » (وقد شرع في تصنيفه عام 617 هـ أي ماخر الموحدين) من « أي قراءانية تصف التقوى والخشية والمعرفة الالهية مثل قول الله تعالى : « ان تتقوا الله يجعل لكم فرقا » وقوله : « وعلمناه من لدنا علما » ومنه العلم اللدني) وقد روى احاديث وفيرة لدعم نظريات الصوفية ومصطلحاتهم منها كلمة الابدال في حديث انس بن مالك عن الرسول عليه السلام وقد ذكر الابدال فقال « كلما مات منهم واحد أبدل الله مكانه من المؤمنين واحدا » . ومنها التوسم في الحديث الذي رواه البزار عن انس « ان لله عبدا يعرفون الناس بالتوسم » وقد انتشرت هذه اللفظة بالمغرب عوض الفراسة حتى قيل في العامية « فلان موسوم بالخير » .

ومنها الحثالة في حديث مرداس الاسلمي « يذهب الاولياء الصالحون الاول فالاول وتبقى حثالة كحثة الشجر او الثمر لا يبالي الله بهم » (البخاري - كتاب الرقاق - باب ذهاب الصالحين) .

وبتحديد مفهوم « الولاية » نفسها مقتبس من الحديث فقد روى البزار عن ابن عباس : « قال رجل يا رسول الله من اولياء الله ؟ قال : الذين اذا رؤوا ذكر الله » (55) ومن مظاهر بساطة الاسلوب الادبي في هذا العصر ما حدثنا به التادلي عن ابي زكرياء الرجرجي الذي كسر رجل قنفذ سهوا بقوله : فربط رجله بجبار وادخله في خايصة فكان يستقيه الماء ويطممه التين والزبيب الى ان انجبر فذهب .

وهذا النص صورة لبساطة اسلوب الادب الصوفي في القرن السابع حيث لا يحتوي على أي لفظ تجفوه السنة العامة .

وقد حفلت كتب الادب وحتى الفقه بالتعابير الصوفية من خلال الادعية والتوسلات والابتهالات فمن ذلك قول عياض : « الحمد لله المنفرد باسمه الاسمي

طريقهم كالمقام والحال والفناء والبقاء والمحو والابيات والنفس والروح والسر والبوادة والهواجم والخطرات والوارد واللوامع والطواع والتلويح والتمكين والفرق والجمع وجمع الجمع والدوق والشرب والغيبة والحضور والمحو والسكر وعلم اليقين وعين اليقين وحق اليقين والمحاضرة والمكاشفة والمشاهدة والمعاملة والمنازلة والمواصلة وعلم المعاملة وعلم ونشر الى شرح هذه الالفاظ .. وهنا بدا ابن خلدون يستخلص من كل معنى تفاريعه الصوفية بعبارات لها مفهوم دقيق يدل على الاطار الخاص الذي استعملت فيه ومن هذه الالفاظ الإرادة والتوبة والتقوى والورع والزهد والقناعة والتوكل والخشوع والتواضع والشكر والصبر والمراقبة والرضى والعبودية والاستقامة والاخلاص والصدق والمحبة والشوق والانزعاج وانرجاء والخوف والقبض والبسط والهيبة والانس وهي كلمات قراءانية تحدد النطاق الصوفي ومدلوله الاسلامي في المغرب ويدل اندراج معظمها في اللسان العامي في المغرب بنفس المفهوم ان القرآن كان هو المصدر الاول الذي زود المعجم الصوفي بكلمات تفرمت عن بعضها كثير من الاشتقاقات وبذلك يكون القرآن قد امد الفكر الصوفي بالفاظ لم يوسق ماسينيون في حصرها كالذكر والسر والقلب والتجلي والاستماع والاستقامة والاستواء والاصطفاء والصدق والاخلاص والرضى والنفس المطمئنة والراضية واللوامة والامارة والسكينة والتوبة واليقين والنور والحق وقد افغل المستشرق الفرنسي مات الكلمات كما يتجلى ذلك بوضوح من الالفة الابجدية للكلمات الصوفية المقتبسة من القرآن (54) يضاف اليها ما تطورت معانيه من طريق النحاة كالضمير والمحقق والاشارة والمجاز والافتران او المتكلمين كالعقل والمعدل والتوحيد والعرض والصفة والصورة والقدم والثبوت والوجود او ما في الاثر والحديث كسبحات الوجه والحدة البيضاء والكبريت الاحمر والاسم الاعظم والديك الابيض ومنقاء مغرب ومقلب القنوب وسبحات الجلال والقطبانية والغوية والفردية والابدال والاوراد والنجباء والنقاء او ما تسرب الى العربية من دخيل يوناني او فارسي او ارامي منذ صدر الاسلام او العهد الجاهلي كالافلاك والاكوار والازياج والمهرجان والدستور والكناش والترياق والديوان الخ ..

(54) راجع كتابنا « المعجم الصوفي » و « المعجم الصوفي من القرآن »

(55) سنن ابن ماجه كتاب الزهد باب 4

يا من خزائن رزقه في قول كن
امتن فان الخير منك اجمع

وقول السجاسي (57) :

طيب يذكر الله فاك فانه
لاجل ما فاهت به الانواء
ما لفتنى لا يرمى وصباحه
ومساؤه يعطانه بسواه
تلقاه تياها على من دونه
ولسوف يعطشه الذي ارواه

وقول العلامة سيدي العربي بن السائح رضي
الله عنه مشيرا الى طريق الصوفية التي كنى منها
بالاتاي (وهو الشاي في لغة المغرب)

واصل شراب حليفة الامجاد
واترك مقال احي هدى وعناد
صفراء تسطع في الكؤوس كانها
من مسجد عصرت بأعصر عاد
تدعى الاتاي وذاك رمز ظاهر
يديره من يدري من الامجاد

وقد كنى ايضا عن الطريق بالقهوة مستعملا
الجناس بين اللون (لونها) والنهي (نهي) حيث قال :

اشرب اخي قهوتنا
ولونها اولوا النهي
ولا تمثل لمآذل
من لونها ولو نها

ومن قول العراق على نسق ابن الفارض :

اتطلب ليلي وهي فيك تجلت
وتحسبها غيرا وغيرك ليست

المختص بالملك الامر الاحمى الذي ليس دونه منتهى ولا
وراءه مرمى الظاهر لا تخيلا ولا وهما الباطن تقدسا
لا عدما وسع كل شيء رحمة وعلما « وورد من
تسبيحات المهدي ابن تومرت : « سبحان من ارسى
مهاد الارض الشامخات وارتفعت بقدوته السماوات
ودبر الارمان بالنور والظلمات وتذكذكت لجلاله
الغايات .. الخ » . ومن مناجاة ابي العباس السبتي
« اللهم افعلت نعم افضالك وانعمت نعم نوالك
وفغرت الذنوب فتكامل احسانك وسترت الميوسب
فتواصل غفرانك .. الهي كيف يحيط بك علم خلقت
ام يدركك بصر انت شققت الخ .. » . ومن اديبة
سيدي عبد السلام بن مشيش شيخ ابي الحسن
الشاذلي امام التصوف بمصر : « اللهم صل على من
انشقت له الاسرار وانفلقت الانوار وفيه ارتقت
الحقائق وتنزلت علوم اادم فاهجر الخلائق وله
تضائلت الفهوم فلم يدركه منا سابق ولا لاحق
فرياض المنكوت برهر جماله موقنة وحيافز الجبروت
بنيض انواره متدفقة » ومن احزاب الشاذلي « انهم
انك تعلم اني بالجهالة معروف وانت بالعلم موصوف
يقدر وسعت كل شيء من جهاتي بعلمك فسبح ذلك
برحمتك » .

ومن الاندلسيين الذين عاشوا في المغرب وتأثروا
بسماته الصوفية ابن الخطيب (56) السلماني الذي
استجلى بروحه الوفاة الشاعرة مخاير الفن والجمال
فقال : « الحب الحقيقي حب يصعدك ويرقيك
ويخلدك ويبقيك ويظلمك ويسقيك ويخلصك الى
قبة السعادة ممن بشقيك » . اما في الشعر فقد
سقتنا في القسم الادبي من مناصر تطور اللغة ومن
نتفا رائعة لا يمكن فعلها عن الادب العام ومن شعر الامام
السبلي الذي اصبحت الخاصة والعامة تلهج به :

يا من يرى ما في الضمير ويسمع
انت الممد لكل ما يتوقع

يا من يرجى للشدائد كلها
يا من اليه الشكوى والمفزع

(56) في كتابه المخطوط « روضة التعريف بالحب الشريف » وقد نشر المقرري جزءا منه في نفع الطيب
في ترجمة ابن الخطيب (راجع كتابنا « الفلسفة والاخلاق عند ابن الخطيب » الذي نال جائزة معهد
مولاي الحسن بتطوان عام 1947) .

(57) الذخيرة السنية ص 55 وقد انتشرت في المغرب الحكم المطاوعة وتداولتها الالسن وشرحها من
المقاربة الكثيرون واصبحت تجري حتى على السن العامة منها « من لا ينفعك لحظه لا ينفعك
لفظه » .

الم ترها القيت عليك جمالها
ولو لم تقم بالذات منك اضمحلت

بديعة حسن ولو بدا نور وجهها
الى اكمله اضحى يرى كل ذرة

عزيز لقاها لا ينال وصالها
سوى من يرى معنى بغير هوية

اذا شئت ان تلقى السعادة والمنى
وبلغ ما منه الرجال تولت

فظهر بماء الذكر قلبك جاهدا
بصدق اللجا وانسله من كل حلة

ويمكن بكف الشرع امسك كله
فدونك ان لم تفعل الباب سدت

فنور سرى في الكون صورة احمد
به تهدي لله كل الخليقة

ولسيدي قدور العلمي من المتأخرين : وهو من
المحققين القريبين من القراءان مع تحريف بسيط :

سبحان من قضى وحكم
وعلم الانسان ما لم يعلم

سبحان الدائم بالعدم
من لا يهوى ولا ينام

مول القدرة مول الحكام
الساكن في قلوب المؤمنين

سبحان الواحد الوحيد
سبحان المالك المجيد

يفعل فملكو ما يريد
ما له شريك ولا عوين

وقد استوفى التبادل بين المشرق والمغرب في
هذا المجال في مظهرين اولهما انتشار طريقتين
صوفيتين مغربيين لكل من ابي الحسن الشاذلي
القمياري وعلي بن ميمون الفاسي صاحب كتاب
« متفقهة ومتفكرة مصر والشام 1581 بالاضافة الى نفوذ
احمد البدوي الفاسي دفين طنطا ، وثانيهما انتشار
مصنفات صوفية شرقية بالمغرب ككتاب الحكم
المطائية الذي صار الناس يحفظونه من ظهر قلب
وقد على عليه العلماء في شروح وفيرة كشروح ابن
عباد وزروق والقلصاوي ومحمد جسوس الفاسي
والحراق وابن عجيبة التطوانى ومحمد بن عبد
السلام بناني والشيخ الطيب بن كيران الخ . . كما
تبدلت رسائل منها جواب الشيخ الغرواني عن امثلة
الناصر اللقاني المصري وهي نموذج للتأويلات الصوفية
المغربية للقراءان اما القصائد المغربية التي اصبحت
تجوي على السنة العامة فكثيرة منها ارجوزة حدائق
الازهار في الزاوية الليازمي والمقباس للوزير الفسائي
ودبران الحراق الذي نحا فيه منحى ابن الفارض
وابن عربي وعبد الغني النابلسي في وحدة الوجود
والنابلسي بما يسمونه الحقيقة الحمديدية وبعطو نفس
الحراق احيانا فيكاد يطول سلفه ابن الفارض في
رقة الاسلوب وسمو المعنى ومما يتفحص بالتصوف
العام قصيدة لاحمد الشريشي السلوي الشاعر
الطبيب وقد شرحها كل من احمد الصومعي واحمد
ابن ابي الحسن الفاسي وهناك كتاب يمكن ان يعتبر
خلاصة للادعية النبوية التي جرت على السنة الصوفية
بعد القرن التاسع وهي دلائل الخيرات الذي شرحه
افراد من العائلة الفاسية وقد انتشر في العالم
الاسلامي هو وذخيرة المحتاج للشيخ المعطي الشرقي
وقد نحا المغاربة منحى الصوفية المشاركة في مدح
الاشياخ بقصائد لا تخلو من معلومات تفيد المؤرخ
من ذلك دالية اليوسي في مدح سيدي محمد بن ناصر
الدريمي وهي « مشهورة بين اهل الادب » عارض بها
دالية البوصيري في ابي الحسن الشاذلي وابي

(58) المتفكرة كالتصوفة وهم الذين يتصنعون الفقر وهو التصوف بلغة المغرب وهي من الآية الشريفة
« يا ايها الناس انتم الفقراء الى الله » . ويظهر ان السبب في اقبال صوفية الشرق على كل ما هو
مغربي الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه (باب الامارة) : « لا يزال اهل المغرب ظاهرين على
الحق حتى تقوم الساعة » وقد كتب ابن حجر في فتح الباري على هذا الحديث مشيراً الى رواية
اخرى من احمد انهم ببيت المقدس بدل المغرب وكذلك عن الطبراني بهذه العبارة « يقاتلون على
ابواب بيت المقدس » وفي هذا اشارة مبينة الى الوضع الحاضر .

تخلو منه زاوية او دباط وخاصة بمناسبة المولد النبوي الذي بدأ العربون يحتفلون به في سبتة ثم ماولك بني مرين في باقي الحواضر وبذلك اندرج عنصر جديد طور لغة الضاد بالمغرب وطبع اللسان الدارج وخاصة منه البربري الذي اقتبس ما كان ينقصه في هذا المجال فتقاربت الشقة بين الفصحى والعامية في اللسانين .

المباس المرسى وقصيدة البوصيري هذه تدل على ما كان للصوفية المغاربة من مكانة في نفوس صوفية الشرق (59) وقد مدح البوصيري كذلك ابا محمد صالح (59) بالتصوف وان كان قد اعتراه شيء من الانحلال فقد كان له كبير الأثر في توجيه وتلوين جميع مرافق الحياة فأصبح الشعب يلجج بالادعية والاذكار ويتلو قصائد الغزل والمديح في سماع لم تعد

(59) كان قطب الدين القسطلاني بمدرسة الحديث بالقاهرة كثير الاعتناء بأصحاب ابي صالح الوافدين على مصر .

□

